C. S. Lewis

رسائل خُربُر

ومعها: خُربُر يقترح نَخباً

سي أس لويس

First published in Great Britain by Geoffrey Bles 1942

رسائل خربر
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٧

أوفير للطباعة و النشر
ص.ب.٣٠٦٢، ١١١٨١ عمان، الاردن
هاتف: ٩٦٢ ٦ ٥٦٦٥ ٧٦٨+ فاكس: ٩٦٢ ٦ ٥٦٣٩ ٧٦٨+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٨ / ٧ / ٢٥٦٩

ISBN: 90-5950-0644

إلى ج.ر.ر. تولكين

"أفضل طريقة لطرد إبليس، إذا لم يُذعِن لآيات الكتاب المقدَّس، هي أن تسخر منه وتهزأ به، لأنَّه لا يُطيق الازدراء."

لـوثـر

"إبليس، ذلك الروح المتكبِّر، لا يمكنه تقبُّل السُخرية."

ثوماس مور

مقدّمة

لستُ أنوي أن أُفسّر كيف وقعَت في يدي مجموعةُ الرسائل هذه التي أُقدِّمها الآن لجمهور القُرّاء.

ثمَّة خطأان متعادلان ومتعارضان يقع فيهما جنسُنا البشريُّ بشأن إبليس وأرواحه الشرّيرة. أحدُهما عدم تصديق وجودهم. والآخر أن نُصدِّق وجودهم وأن يكون لدينا اهتمام زائد وغير سليم بهم. وهم أنفسُهم يَسرُّهم بشكل متساوٍ كِلا هذين الخطأين، ويهتفون للماديِّ وللساحر بالابتهاج عينه. أمَّا نوع الكتابة المُستخدَم في هذا الكتاب فمن السهل جدّاً أن يُحرِزه أيُّ شخص تعلَّم المهنة. ولكنَّ سيئي النيّةِ وسريعي الاهتياج الذين قد يسيئُون استخدام هذا الأُسلوب لا ينبغي لهم أن يتعلَّموه منّي.

يُنصَح القُرّاء بأن يتذكَّروا أنَّ إبليس كذّاب. فليس كلُّ ما يقوله خُربُر ينبغي أن يُعتبر صحيحاً على البديهة، ولو من زاوية نظره الخاصَّة. ولم أقُم بأيَّة محاولة للتعريف بأيٍّ من الكائنات البشريَّة المذكورة في الرسائل. إلاَّ أنَّني أحسبه أمراً غير مُرجَّح جدّاً أن تكون أوصاف الأخ شُوَيك أو أُمّ المريض، على سبيل المثل، صائبةً كلّيّاً. ففي الجحيم، كما على الأرض، ثمَّةَ تفكيرٌ تُمليه الرغبات.

ختاماً، أودُّ أَن أُضيف أنَّني لم أبذل أيَّ جهد لتوضيح تسلسُل الرسائل زمنيّاً. فيبدو أنَّ الرسالة السابعة عَشْرَ قد أُلِّفت قبل صيرورة التوزيع جدِّيّاً. ولكنْ على العموم، يبدو أنَّ أُسلوبَ التأريخ الشيطانيَّ لا يمتُّ بأيَّة صلة إلى التوقيت الأرضيِّ، وأنا لم أُحاوِل إعادة ترتيبه. فمن الواضح أنَّ تاريخ الحرب الأُوروبيَّة لم يلقَ أيَّ اهتمام عند خُربُر، إلاَّ حيث يصدف بين الفينة والأُخرى أن يكون لها مساسٌ بالحالة الروحيَّة لدى كائنٍ بشريٍّ معيَّن.

سي أس لويس
كليَّة مجدالين
٥ تمّوز (يوليو) ١٩٤١

رسائل خُربُر

١

عزيزي عَلقَم،

أخذتُ علماً بما تقوله عن توجيه قراءات مريضك والاعتناء بأن يُكثِر من مخالطة صديقه الماديّ. ولكنْ ألستَ في هذا ساذجاً بعضَ الشيء؟ يبدو أنّك قد افترضتَ أنَّ الجدال وتقديم الحجج هو السبيل إلى إبقائه بعيداً عن براثن العدوّ. وكان ممكناً أن يكون الأمر كذلك لو أنّه عاش قبل قرونٍ قليلة. ففي ذلك الزمان كان البشر ما زالوا يعرفون جيّداً إلى حدٍّ بعيد متى يُبرهَن على شيءٍ ومتى لا يبرهَن عليه، حتّى إذا تبرهن صدَّقوه حقّاً. وكانوا ما يزالون يربطون التفكير بالتصرُّف، وكانوا مستعدّين لتغيير نمط حياتهم نتيجة سلسلة من التعليل والتفسير والتفكير. ولكنْ بوجود الصُّحف الأسبوعيّة، وغيرها من الأسلحة نظيرها، غيَّرنا ذلك على أوسع نطاق. فإنَّ زبونك قد تعوَّد، منذ نعومة أظفاره، أن يحوز دزّينةً من الفلسفات المتضاربة مُتراقصةً داخل رأسه. وهو لا يُفكّر بالعقائد من حيث كونُها بشكل أساسي "صحيحة" أو "خاطئة"، بل بوصفها "أكاديميَّة" أو "عمليَّة"، "بائدة" أو "معاصرة"، "تقليديَّة" أو "متحجِّرة". فالجَعجعة والكلام غير المُفضي إلى نتيجةٍ، لا المُحاجَّة والتفكير المنطقي، خيرُ حليفٍ لك في إبعاده عن الكنيسة. فلا تُبدِّد

وقتك في دفعه إلى التفكير بأنَّ المادِّيَّة صحيحة! اِجعله يُفكِّر أنَّها قويَّة، أو باهرة، أو جريئة: أنَّها فلسفة المستقبل. ذلك هو نوع الشيء الذي يستهويه ويهتم به.

إنَّ المشكلة في المحاجَّة والتفكير المنطقي الذي يتضمن تقديم البراهين تكمن في كونها تنقل الصراع كلَّه إلى أرض العدوّ الخاصَّة. وفي وسعه هو أيضاً أن يُحاجَّ، في حين أنَّه في مجال الدعاية العمليَّة من النوع الذي أقترحه[1] قد تبيَّن على مدى قرونٍ طويلة أنَّه إلى أبعدِ حدٍّ أقل قدرةً من أبينا الذي في الأسفل. فبفعل المحاجَّة والنقاش المنطقي، توقظ أنت عقل المريض؛ وإذا استيقظ فمن يستطيع التكهُّن بالنتيجة؟ حتَّى لو استطعنا أن نَلوي حبلاً من الأفكار بحيث يؤول إلى مصلحتنا، فسيتبيَّن لك أنَّك كنتَ تُقوّي لدى مريضك تلك العادة المهلكة المتمثِّلة في التَّصدِّي للقضايا الكونيَّة ومعالجتها والسعي لفهمها، وتصرف انتباهه عن مجرى الاختبارات الحسِّيَّة المباشرة. فمهمَّتك هي أن تركِّز انتباهه على ذلك المجرى. وعلِّمه أن يدعو ذلك "الحياة الحقيقيَّة"، بغير أن تدعه يسأل عمَّا يعنيه بصفة "الحقيقيَّة".

تذكَّر أنَّه ليس روحاً محضاً، كحالك أنت. فإذ لم تكن قطُّ آدميّاً (وهي مَزيَّة بغيضة اتصف بها العدوُّ!) لا تُدرِكُ إلى أيِّ مدىً يستعبدهم ضغطُ المألوف والمعتاد. كان لي ذاتَ مرَّة مريض، وهو مُلحِد راسخ، اعتاد أن يقرأ في المُتحَف البريطانيّ. وبينما هو جالسٌ يقرأ في أحد الأيَّام، رأيتُ في رأسه حَبل أفكارٍ بدأ يتَّجه في الوجهة الخطأ.[2] وبالطبع، حضر العدوُّ إلى جواره بلمح البصر. وقبل أن أتبيَّن موقعي، رأيتُ العمل الذي

١ ما اقترحه خربر هو الجعجعة ومجرّد النقاش الفارغ، وهو يرى أن أباه الذي في الأسفل (إبليس) يتفوق فيه على الله.

٢ الوجهة الخطأ بالنسبة لخُربُر

أنجزتُه طوال عشرين سنة يكاد ينهار. ولو فقدتُ صوابي وشرعتُ في محاولةٍ للدفاع من طريق المُحاجَّة والبرهنة، لذهب كلُّ جهدي أدراج الرياح. غير أنَّني لم أكن بهذه الغباوة. ففي الحال وجَّهتُ ضرباتي إلى جزء الرجُل الذي أُسيطر عليه أفضلَ سيطرة، فأوحيتُ إليه بأنَّ وقت الغداء قد حان. وقد أوحى إليه العدوُّ، على وجه الاحتمال، الإيحاءَ المضادَّ بأنَّ ما يقوم به أهمُّ من الغداء (وأنت تعرف كيف لا يستطيع الواحدُ منَّا البتَّة أن يَسترِق بسهولة سَمْع ما يقولُه عدوُّنا لهم!). على الأقلّ، أظنُّ أنَّ ذلك كان نَهجَهُ، لأنَّني حين قلتُ لمريضي: "كفى الآن! إنَّ سدَّ جوعك أهمُّ بكثير بعدما ولّى الصباح وحلَّ الظُّهر،" انفرجت أساريرُه على نحوٍ لافت. وما إن أضفتُ: "أفضلُ جدّاً أن تعود بعد الغداء وتُقبِل على القراءة بذهنٍ مُنشَّط،" حتَّى كان قد بلغ الباب تقريباً. وحالما وصل إلى الشارع، تحقَّق لي الفوز في المعركة. فقد أريتُه بائع صُحف يُنادي بصحيفة نصف النهار، وحافلةً رقمُها ٧٣ مُقبلةً نحوه. وقبل بلوغه أسفل الدَّرج، كنتُ قد أدخلتُ في رأسه قناعةً راسخة بأنَّه مهما خطر في بال المرء من أفكار غريبة وهو في خَلوةٍ مع كُتبه فإنَّ جُرعةً سليمةً من "الحياة الحقيقيَّة" (وهو يعني بها الحافلة وبائع الصُّحف) كافية لأن تُريَه أنَّ "ما فكَّر به وخطر على باله" لا يُعقَل أن يكون صحيحاً. وقد علم أنَّه نجا بصعوبة، وفي سنين لاحقة شُغِف بالتحدُّث عن "ذلك الشعور الغامض والمُبهَم بالحقيقة، الذي هو حامينا الأسمى من ضلالات المنطق المجرَّد النقي." وهو سالمٌ الآن في بيت أبينا.

أبَدأتَ ترى بيت القصيد؟ بفضل عمليّات بدأناها فيهم منذ قُرون، يجدون من المستحيل تقريباً أن يؤمنوا باللامألوف فيما المألوفُ نُصبَ أعيُنهم. شدِّد له دائماً على اعتياديَّة الأُمور. وقبل كلِّ شيء، لا تحاول أن تستخدم العِلم (أعني العلوم الحقيقيَّة) كدفاعٍ في مواجهة المسيحيَّة.

فمن شأن العلوم أن تُشجِّعه حتماً على التفكير في حقائق لا يستطيع لمسها ورؤيتها. وقد حصلت حالات مؤسفة بين الفيزيائيِّين المُحدَثين. وإن كان لا بدَّ له أن يشتغل في العلوم على سبيل الهواية، فاحصره في مجال الاقتصاديَّات أو الاجتماعيّات، ولا تدعْه يبتعد عن تلك الحياة "الحقيقيَّة" التي لا تُقدَّر بثمن. ولكنَّ أفضلَ كلِّ شيء ألاَّ تدعَه يقرأ شيئاً من العلوم، بل أن تغرس في ذهنِهِ فكرةً عامَّة عظيمة بأنَّه يعلم كلَّ علم، وأنَّ كلَّ ما قد التقطه بالصُّدفة خلال الأحاديث العابرة والقراءة العَرَضيَّة هو "نتائج البحث الحديث". هلاَّ تتذكَّرُ أنَّك موجودٌ هناك كي تُربِكه وتُشوِّشه! فمن الطريقة التي بها يتكلَّم بعضُكم، أنتم الشياطين الصغار، لا بدَّ لأيِّ شخصٍ من أن يفترض أنَّ عملنا هو أن نُعلِّم!

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٢

عزيزي عَلقَم،

علمتُ بمزيدٍ من الاستياء أنَّ مريضك قد آمن بالمسيح. فلا تُعلِّلِ النفسَ بأمل الإفلات من العقوبات المعتادة. وبالحقيقة، في أحسن حالاتك، أثق بأنَّك لا تكاد ترغب في ذلك مجرَّد رغبة. إنَّما في هذه الأثناء علينا أن نستغلَّ الوضع أحسنَ استغلال ونبذُل أقصى ما نستطيع من جهد. لا داعيَ لليأس، فإنَّ مئاتٍ من هؤلاء المهتدين البالغين قد تمَّ استردادُهم بعد إقامة وجيزة في معسكر العدوّ، وهم معنا الآن. وجميعُ عادات المريض، العقليَّة والبدنيَّة، ما تزال في مصلحتنا وفي صفِّنا.

مِن حُلفائنا العظام، في الوقت الحاضر، الكنيسةُ نفسُها. لا تُسئ فهم ما أقول. لستُ أعني الكنيسة كما نراها مُنتشرةً عبر كلِّ زمان ومكان ومتجذِّرةً في الأزل، مُرهِبةً كجيشٍ ذي رايات. فإنِّي لأعترفُ بأنَّ ذلك مشهدٌ يُقلِق أجرأ مَن لدينا مِنْ مُجرَّبين. ولكنْ مِن سعدنا أنَّ هذا غير مرئيٍّ تماماً لدى الأدميِّين. فكلُّ ما يراه مريضُك هو المبنى القُوطيُّ المزخرف نصفُ المكتمِل على موقع البناء الجديد. وعندما يدخل إلى الداخل، يرى البقّال المحلِّيَّ، وعلى وجهه تعابيرُ أميَل إلى المُداهنة

والنفاق، يهبُّ واقفاً ليُقدِّم إليه كتاباً لمّاعاً صغيراً يحتوي على طقوسٍ دينيَّة لا يفهمانها كِلاهما، وكتاباً صغيراً بالياً فيه نصوصٌ مشوَّهة لعدد من التراتيل الدينيَّة، الرديئة في معظمها، والمطبوعة بخطٍّ صغير جدّاً. وحين يصل إلى مقعده وينظر حوالَيه، لا يرى سوى تلك المجموعة من جيرانه التي طالما تجنَّبها حتَّى ذلك الحين. فينبغي أن تعتمد جيّداً على أولئك الجيران. اِجعل ذهنه يشرد جيئةً وذهاباً بين تعبيرٍ مثل "جسد المسيح" والوجوه الفعليَّة على المقعد الطويل التالي. طبعاً، لا أهميَّة بالغة لنوع الأشخاص الذين يجلسون في المقعدِ التالي. قد تعرف واحداً منهم بصفته محارباً شُجاعاً في صفّ العدوّ. فلا يهمَّك ذلك. إنَّ مريضك، بفضل أبينا الدنيّ، غبيّ. فإذا صدف أنَّ واحداً من أولئك الجيران خالف النغم عند الترتيل، أو كان ينتعل حذاءً له صريرٌ وصريف، أو كان تحت ذقنِه لُغد،[1] أو ثيابُه غريبة الطراز، فإنَّ المريض سيعتقد بكلّ يُسر أنَّ ديانتهم لا بدَّ أن تكون سخيفةً على نحوٍ ما. فأنت ترى أنَّه في مرحلته الحاليَّة، لديه في ذهنه فكرةٌ عن "المؤمنين بالمسيح" يَفترِض أنَّها روحيَّة، ولكنَّها بالحقيقة رسميزيتيَّة[2] إلى أبعد حدّ. ذلك أنَّ ذهنه زاخرٌ بالأثواب الفضفاضة والصَّنادل والدروع والسيقان المكشوفة، ومجرَّدُ حقيقة كون الآخرين في الكنيسة لابسين ثياباً حديثة هي عنده صعوبة فعليَّة، وإن كانت بالطبع لاواعية. فلا تدعَنَّ الأمر يطفُ على السَّطح؛ لا تدعنَّه يسأل أبداً عمَّا توقَّع لهم أن يبدوا عليه. أبقِ كلَّ شيء مشوَّشاً في ذهنه الآن، وستكون لديك الأبديَّةُ بطولها لتتسلَّى بأن تُنتج فيه ذلك النوع الغريب من الوضوح الذي يعطيهِ الجحيم.

فركِّز كلَّ جهدك إذاً على الخيبة أو الهبوط المُفاجئ اللذين سيُصيبان

١ اللغد: ثنية لحمية بين الحنك والعنق.

٢ أي مستقاة من صورٍ رآها تصوِّر الكنائس والمسيحيين، قديمةٍ في معظمها.

المريض حتماً في أثناء أسابيعه الأولى بوصفه مُرتاداً للكنيسة. إنَّ العدوَّ يسمح بحصول هذه الخيبة على عتبة كلِّ مسعىً بشريّ. فهي تحصل عندما ينكبُّ على تعلُّم اللغة اليونانيَّة بجدّيَّة ذلك الصبيُّ الذي سبق أن سحرَته في دار الحضانة حكاياتٌ من ملحمة الأُوديسَّة. كما أنَّها تحصل عندما يتزوَّج الحبيبان ويُباشِران المهمَّة الواقعيَّة المتمثِّلة في تعلُّم العيش معاً. وهي في كلِّ دائرة من دوائر الحياة تُميِّز الانتقال من الطموح الحالم إلى التحرُّك العمليّ والواقعي. والعدوُّ يقوم بهذه المغامرة لأنَّ لديهِ نزوةً غريبة في تحويل هؤلاء الطُّفيليِّين البشريِّين الصغار المُنفِّرين إلى ما يدعوه أحبّاء وخُدّاماً "أحراراً" – "أبناء" حسب الكلمة التي يستخدمها – بحبِّه الذي لا يلين لإهانة العالَم الروحيِّ كلِّه بإقامة علائق غير طبيعيَّة بالحيوانات التي تنتصب على قَدَمين. فرغبةً منه في ممارستهم لحرِّيَّتهم، يرفض تالياً أن يَحمِلَهم حَملاً، بمجرَّد عواطفهم وعاداتهم، إلى أيٍّ من الغايات التي يضعها أمامهم: إذ يدعهم يفعلون ذلك "بمحض إرادتهم". وها هنا تكمن فرصتنا. إنَّما تذكَّر أيضاً أنَّه ها هنا يكمن الخطر الذي يتهدَّدنا. فما إن يجتازون هذا الجفاف الأوَّليَّ بنجاح، حتَّى يُصبِحوا أقلَّ اتِّكالاً بكثير على العواطف، ومن ثمَّ أصعبَ كثيراً أن يُغوَوا ويقعون فريسةً للتجارب.

استمررتُ أكتبُ حتَّى الآن على افتراضِ أنَّ الجالسين على المقعد الطويل التالي لا يوفِّرون أيَّ أساس عقلانيّ لتلك الخيبة. وكان من شأن مهمَّتك أن تكون أسهل جدّاً بالطبع لو فعلوا ذلك: لو عرف مريضُك أنَّ المرأة المعتمرة تلك القبَّعة المضحكة لاعبةُ بريدج[٣] مهووسة، أو أنَّ الرجل المُنتعِل الحذاءَ ذا الصرير والصريف بخيلٌ ومُبتزّ. فكلُّ ما عليك عندئذٍ أن تفعله هو أن تصرف ذهنه عن هذا السؤال التالي:

٣ البريدج: لعبة بالبطاقات

"إذا استطعتُ، في حالتي التي أنا عليها، أن أعتبر نفسي مؤمناً بالمسيح بمعنىً ما، فلماذا ينبغي أن تُثبِت مُختلِف رذائل هؤلاء الجالسين على المقعد التالي أنَّ ديانتهم مجرَّدُ رياء وتقليد؟"[٤] ولعلَّك تتساءل عن إمكانيَّة الحيلولة دون ورود فكرةٍ بديهيَّة كهذه حتَّى في ذهنٍ بشريّ. إنَّ ذلك ممكن، يا علقم، نعم إنَّه ممكن! تولَّ أمره جيِّداً، حتَّى لا تخطر تلك الفكرة في باله على الإطلاق. فلم تمضِ على انضمامه إلى العدوّ مدَّةٌ يكفي طولُها لحيازة أيِّ اتِّضاع حقيقيٍّ بعد. وكلُّ ما يقوله، حتَّى وهو جاثٍ على ركبتيه، عن حالتِه الخاطئة هو كلام ببغائيٌّ بجمله. ففي قرارة نفسه، ما يزال يعتقد أنَّه قد فتح حسابَ اعتمادٍ مُربِحاً جدّاً في الدفتر الأُستاذ لدى عدوِّنا إذ سمح لنفسه بأن يهتدي، ويحسب أنَّه يُبدي تواضعاً وتصاغُراً عظيمَين بارتياده للكنيسة أصلاً مع هؤلاء الجيران العامِّيِّين "المتأنِّقين" "المغرورين". فأبقِه في تلك الحالة الذهنيَّة ما دمتَ تستطيع ذلك.

عمُّك المُحِبّ

خُربُر

٤ فكرته هي: أنا في شروري الحالية أعتبر نفسي مؤمناً بالمسيح، ولذا فما المانع من اعتبار هؤلاء، الذين تظهر خطايا مختلفة في حياتهم، مؤمنين أيضاً؟

٣

عزيزي عَلقَم،

أنا مسرورٌ جدّاً بما تقوله لي عن علاقات هذا الرجُل بأُمّه. ولكنْ يجب عليك أن تُحسِن استغلال الوضع بكلّ قواك. سوف يكون العدوُّ عاملاً من المركز نحو الخارج، مُخضِعاً أكثر فأكثر من تصرُّفات المريض للمعيار الجديد، وقد يُوصِل سلوكه إلى مستوى السيِّدة العجوز في أيّة لحظة. وينبغي لك أن تتدخّل أوّلاً. فابقَ على اتّصالٍ وثيق بزميلنا غُلبوص المسؤول عن الأُمّ، وأنشئا بينكما في ذلك البيت علاقةً طيّبة راسخة من الإزعاج المتبادل والمُضايقات اليوميَّة. والوسائل التالية نافعة.

١. أبقِ فكره مركّزاً على الحياة الداخليَّة. فهو يعتقد أنَّ اهتداءه شيءٌ في داخله، ولذلك يصرف اهتمامه بشكل أساسي في الحاضر نحو أحوال ذهنه الخاصّ، أو بالأحرى نحو تلك النُّسخة المهذّبة جدّاً منها والتي هي كلُّ ما ينبغي لك أن تدعه يراه. فعزِّز هذا وشجِّع عليه: اصرف ذهنه عن الواجبات الأوَّليَّة والأساسية أكثر من غيرها، بتوجيهك إيَّاه نحو تلك الأكثر تقدُّماً وروحانيَّة. فاقِم تلك المزيَّة البشريَّة الأكثر نفعاً: هولَ البديهيّ وإهماله. عليكَ أن تُوصِله إلى حالةٍ يستطيع فيها أن يمارس فحص الذات مدّةَ ساعةٍ كاملة بغير أن يكتشف بشأن

نفسه أيّةً من تلك الحقائق الواضحة تماماً في نظر أيِّ شخصٍ عاش معه في البيت نفسه أو اشتغل معه في المكتب عينه.

٢. لا شكَّ أَنَّ من المستحيل منعَه أن يُصلّي لأجل أُمّه، ولكنّ لدينا طُرقاً لجعل صلواته غير مؤذية. فتيقّن أن تكون صلواته كلَّ حين "روحانيّة" جدّاً، وأن يكون هو مَعنيّاً دائماً بحالة نفسها وليس بداء مفاصلها أبداً. وستلي ذلك حسنتان. فأوّلاً، سيبقى اهتمامُه مُنصبّاً على خطاياها، وبفضل توجيهٍ يسيرٍ منك يمكن أن يُحفَز على اعتبار أيّ من أفعالها المُضايقة أوِ المُغضِبة خطيةً. وعليه، يمكنك أن تحكَّ جراح اليوم حكّاً يؤلِمه أكثر قليلاً حتّى وهو جاثٍ على ركبتيه. هذه العمليّة ليست صعبةً على الإطلاق، وستجد فيها تسليةً جمّة. وثانياً، بما أنّ أفكاره بشأن نفسها ستكون فجّةً جدّاً وغيرَ ناضجةٍ ومخطئةً في الغالب، فسيكون إلى حدٍّ ما مُصلّياً لأجل شخصٍ وهميّ. وستكون مهمّتك أن تجعل ذلك الشخص الوهميَّ يوميّاً أقلَّ فأقلَّ شبهاً بأُمّه الحقيقيّة: السيّدة العجوز الحادّةِ اللسان الجالسة إلى طاولة الفَطور. وعاجلاً أو آجلاً، قد تُصيِّر الشقَّ واسعاً جدّاً بحيث يُعيقُ سَرَيان أيِّ فكر أو شعور من صلواته لأجل الأم المتوهَّمة إلى معالجته للأمِّ الحقيقيّة. ولطالما كانت لي على بعض مرضاي سيطرةٌ فعّالة بحيث أمكنني تحويلُهم في لُحَيظة عن الصلاة الحارّة لأجل "نفسِ" زوجةٍ أو ابن إلى ضرب الزوجة أو الابن الحقيقيَّين أو إهانتهما بلا هوادة.

٣. حينما يعيش آدميّان معاً سنين طويلة، يحدثُ عادةً أن تكون لكلٍّ منهما نبراتُ صوت وتعابيرُ وجه تُغضِب الآخر على نحوٍ لا يكاد يُحتَمل. فاستغلَّ هذا الواقع جيّداً. استحضِر تماماً إلى ذهن مريضك التقطيبةَ الخاصّة في حاجبَي أُمّه تلك التي تعلَّم أن يمقتها حين كان في دار الحضانة، ودعه يُفكّر في مدى مقته لها. ودعْه يفترض أنّها تعرف

مدى مضايقتها له وأنَّها تقوم بها كي تُضايقه. وإذا أحسنتَ القيام بعملك هذا، فلن يلاحظ زبونك عدم احتماليَّة هذا الافتراض إلى أقصى الحدود. ثمَّ احرصْ بالطَّبع على ألاَّ يشكَّ في أنَّ لديه هو نبراتٍ ونظراتٍ تُضايق أُمَّــه بالمِثل. وبما أنَّه لا يستطيع أن يرى أو يسمع نفسه، فمن السهل تولِّي هذا الأمر.

٤. إنَّ البغضاء العائليَّة، في الحياة المتمدِّنة، تُعبِّر عن نفسها عادةً بقول أشياءَ من شأنها أن تبدو على الورق غير مؤذيةٍ على الإطلاق (الكلمات لا تكون مُغضِبة)، ولكن حين تُقال بنبرة صوت معيَّنة أو في لحظةٍ محدَّدة لا تُقصِّر كثيراً عن أن تكون أشبه بلكمةٍ على الوجه. ولكي تُبقيَ هذه اللعبة على أشُدِّها، عليكَ أن تُعنى أنت وغُلبوص بأن يكون لكلٍّ من هذين الغبيَّين نوعٌ من المعيار المزدوج. فيجب أن يطلب مريضُك أن تُفهَم جميع أقوالُه بمعناها الظاهريّ، وَأنْ يُحكَم عليها على أساس الكلمات الفعليَّه المجرَّدة، في حين يَحكم هو على جميع أقوال والدته بمقتضى التفسير الأكمل، والمفرط الحسَّاسيَّة إلى أبعد حدّ، لنبرة الصوت وقرينة الكلام والقصد المُتوهَّم. ويجب أن تُشجَّع هي على معاملته بالمِثل. وعندئذٍ يُتاح لكِلَيهما، بعد كلِّ مشاجرة، أن يمضي مُقتنِعاً – أو على وشك الاقتناع – بأنَّه بريءٌ إلى التمام. إنَّك تعرف نظير هذا القول: "يكفي أن أسألها متى موعد الغداء حتَّى تستشيط غضباً عليّ!" فما إن تتأصَّل هذه العادةُ جيِّداً حتَّى يغدوَ لديك الوضعُ المُبهج الذي فيه يقولُ الآدميُّ أقوالاً تهدف بوضوح إلى الإغضاب، ومع ذلك يتشكَّى حين يثور الغضب بسبب ما قاله.

أخيراً، أفِدني بشيءٍ عن الحالة الدينيَّة لدى السيِّدة العجوز. ألَدَيها شيءٌ من الغيرة بشأن العنصر الفعَّال الجديد في حياة ابنها؟... شيءٌ من الاستياء لأنَّه تعلَّم من الآخرين، وبعد طول زمان، ما تعتبر أنَّها قد

يسَّرت له في صغره فرصةً ممتازة لتعلُّمه؟ أم هي تشعر بأنَّه يصطنع كثيراً من "الجَلَبة" بشأن هذا الأمر، أو بأنَّه داخلٌ بموجب شروطٍ وظروفٍ سهلة جدّاً؟ أما تذكر الأخ الأكبر في قصَّة الابن الضالّ التي حكاها عدوُّنا؟

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٤

عزيزي عَلقَم،

نبَّهَتني الاقتراحاتُ غير البارعة في رسالتك الماضية إلى أنَّ الأوان قد آن كي أكتب إليك بالتفصيل في موضوع الصلاة المؤلم. وقد كان في وسعك أن تُحجم عن تعليقك بأنَّ نصيحتي لك بشأن صلوات زبونك لأجل أُمِّه "أثبتت فَشَلها على نحوٍ استثنائيّ." فليس هذا من الأشياء التي يجدر بابن الأخ أن يكتبها إلى عمِّه، ولا بمُجرِّبٍ صغير إلى وكيل الدائرة. وهو ينمُّ أيضاً عن رغبةٍ بغيضة في التهرُّب من المسؤوليَّة وتحميلها لآخرين. فيجب عليك أن تتعلَّم دفع ثمن أخطائك الفادحة.

إنَّ أفضل شيء تفعله، حيث يكون ممكناً، هو أن تَحُول كلّيّاً بين مريضك والتصميم الجدِّيّ على الصلاة. وحين يكون المريض بالغاً اهتدى مجدَّداً منذ عهدٍ قريب إلى حزب العدوّ، مثله مثل زبونك، يتمُّ إنجاز ذلك على أفضل نحو بتشجيعه على أن يتذكَّر — أو يظنَّ أنَّه يتذكَّر — طبيعة صلواته الببغائيَّة في صِغَره. كردَّةِ فعلٍ على هذا، يمكن إقناعه باستهدافِ نوع من الصلاة تلقائيٍّ كليّاً، داخليّ، غير رسميّ، غير منتظم. وما يعنيه هذا فعلاً بالنسبة إلى المبتدئ سيكون محاولةَ أن يُنتج في ذات نفسه مزاجاً تعبُّديّاً غامضاً ليس من دورٍ فيه للتركيز الفعليّ

من جانب الإرادة والعقل. فإنَّ أحد شُعَرائهم، كُولِريدج (Coleridge)، كتب أنَّه لم يكن يُصلِّي "بشفتين متحرِّكتين وركبتين مَحنيَّتين" بل إنَّما "يُعِدُّ روحه للمحبَّة" ويستغرق في "إحساسِ ابتهال". ذلك تماماً هو نوع الصلاة الذي نريده. وبما أنَّه ينطوي على مشابهة سطحيَّة لصلاة الصَّمت كما يمارسها أولئك المتقدِّمون كثيراً في خدمة عدوِّنا، فالمرضى الأذكياء والكُسالى يمكن أن يُخدَعوا به مدَّةً طويلة جدّاً. وعلى الأقلِّ الأقلّ، يمكن إقناعُهم بأنَّ الوضعيَّة الجسميَّة لا تُحدِث فرقاً في صلواتهم، لأنَّهم دائماً ينسَون ما يجب أن تتذكَّره أنت كلَّ حين، وهو أنَّهم حيوانات وأنَّ أيَّ شيء تفعله أجسامُهم يؤثِّر في نفوسهم فعلاً. وعجيبٌ كيف يُصوِّرنا البشر دائماً مُدخِلين أُموراً في عقولهم، في حين أنَّ عملنا الأفضل يتمُّ إنجازُه بإبقاء الأمور خارجها.

أمَّا إذا أخفق هذا، فعليك أن تنكفئ إلى طريقةٍ أدهى في توجيه عزمه توجيهاً خاطئاً. فكلَّما كانوا مُصغين إلى العدوِّ نفسه نكون مهزومين، ولكنَّ لدينا طُرقاً لمنعهم أن يفعلوا ذلك؛ أسهلُها أن نحوِّل أنظارهم عنه إلى أنفسهم. فأبقِهم مُنشغِلين بأذهانهم بالذات، ومُحاوِلين أن يُنتِجوا مشاعر في داخلهم بفعل إراداتهم الخاصَّة. فحين يقصدون أن يطلبوا منه المحبَّة، دعهم عوضاً عن ذلك يُباشِروا محاولةَ اصطناع مشاعرَ محبَّة لأنفسهم بغير أن يُلاحِظوا أنَّهم فاعلون ذلك. وحين يقصدون أن يصلُّوا طالبين الشجاعة، دعهم يعكفوا في الواقع على محاولة الشعور بأنَّهم شجعان. وحين يقولون إنَّهم يُصلُّون لأجل المغفرة، دعهم ينصرفوا إلى محاولة الشعور بأنَّهم حاصلون على الغفران. علِّمهم أن يُخمِّنوا قيمة كلِّ صلاة بنجاحهم في إنتاج الشعور المرغوب، ولا تدعهم البتَّة يظنون أن النجاح أو الفشل في إنتاج هذه المشاعر يتوقَّفان على كونهم أصحّاء أو مرضى، مرتاحين أو مُتعَبين، في اللحظة الحاضرة.

ولكنَّ العدوَّ بالطبع لن يكون متكاسلاً في هذه الأثناء. فكلَّما حصلت صلاة، يوجد خطر التصرُّف المباشر من قِبَله. إنَّه لامُبالٍ على نحوٍ ساخر بكرامةِ مَقامه، ومقامنا، كأرواحٍ محض؛ وللحيوانات البشريَّة الجاثية على رُكَبها يسكب معرفة الذات بطريقة مُخزية للغاية. ولكنْ حتَّى لو دحر محاولتك الأولى في التوجيه الخاطئ، فعندنا سلاحٌ أمضى وأمكر. ذلك أنَّ الآدميِّين لا ينطلقون من الإدراك الحسِّي المباشر لعدوِّنا، وهو، للأسف، ما لا نستطيع نحن تجنُّبه. فهم لم يعرفوا قطُّ ذلك الضياء الساطع المروِّع، ذلك الوهج السافع الخارق الذي يُشكِّل خلفيَّة الألم الدائم في حياتنا. فإذا نظرتَ داخل عقل مريضك وهو يصلِّي، فلن تجد ذلك. وإذا تفحَّصت الغرض الذي يَشخص إليه، فسيتبيَّن لك أنَّه غرض مركَّب يحتوي على عدَّة مُقوِّمات وعناصر سخيفة مُضحِكة للغاية. ستكون فيه صُوَر مُستوحاة من رسوم العدوِّ كما كانت هيئتُه في أثناء تلك الفترة البغيضة المعروفة بالتجسُّد. وستكون فيه صُوَر أكثرُ غموضاً – ربَّما فجَّة وطفولية جدّاً – مرتبطة بالأُقنومَين الآخرَين. بل سيكون أيضاً بعضٌ من مهابة الزَّبون الشخصيَّة (والأحاسيس الجسديَّة المُصاحِبة لها) ذا شكلٍ مُعيَّن ومنسوباً إلى الغَرَض المهوب. وقد عرفتُ حالاتٍ فيها كان ما يدعوه المريض "إلهه" مستقرّاً بالفعل في مكانٍ ما: فوقُ إلى اليسار عند زاوية سقف غرفة النوم، أو داخل رأسه هو، أو على صليبٍ مُعلَّق على الحائط. ولكنْ مهما كانت طبيعة ذلك الغَرَض المركَّب، ينبغي لك أن تُبقيَه مصلّياً إليه – إلى الشَّيء الذي صنعه هو، وليس إلى الشخص صانع ذلك الإنسانِ. حتَّى إنَّ لك أن تُشجِّعه على إضفاء أهميَّة بالغة على تصحيح غَرَضه المُركَّب وتحسينه، وعلى إبقائه دائماً نُصبَ خياله في أثناء الصلاة كلِّها. فإن حصل مرةً أنه أراد أن يفرِّق بين الحقيقة وغرضه المُتخيَّل، إن حصل أنْ وجَّه صلواته ليس إلى

ما يظنه الله بل إلى ما يعرفُهُ الله عن نفسه، فعندئذٍ يكون وضعُنا مُؤنِساً. وما إنْ يتمَّ للرجل التخلّي عن جميع أفكاره وتصوُّراته، أو الإبقاءُ عليها – إذا بقيَت – بتمييزٍ تامٍّ لطبيعتها الذاتيَّة الصِّرف، ويعهد بنفسه إلى الحضرة[1] غير المرئيَّة، الخارجيَّة، الحقيقيَّة تماماً، الموجودة معه هناك في الغرفة والتي لا يعرفها البتَّة كما تعرفه هي، حتَّى يمكنَ حدوثُ ما لم يكن في الحسبان. ففي تلافي هذا الوضع، أي تلافي التجرُّد الحقيقيِّ للنفس عند الصلاة، ستُساعِدُك حقيقةُ كون الآدميِّين أنفسِهم لا يرغبون في تلافيه بمقدار ما يفترضون. إذ إنَّ هذا يُشبِه حصولَهم على أكثرَ ممَّا توقَّعوه!

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

١ يُقصَد بالحضرة: الله الحاضر في كل مكان، بما في ذلك المكان الذي فيه ذلك الإنسان.

٥

عزيزي عَلقَم،

من المُخيِّب للآمال قليلاً أن أتوقَّع تقريراً مفصَّلاً عن عملك فأتلقَّى عوضاً عن ذلك قطعةً إنشائيَّة انفعاليَّة نظير رسالتك الأخيرة. تقول إنَّك "مُنفعِل من الفرح" لأنَّ الآدميِّين الأُوروپيِّين قد باشروا حرباً أُخرى من حروبهم. فأنا أرى بكلِّ وضوح ما قد جرى لك. إنَّك لستَ منفعلاً، بل أنت سكران فحسب. فعند القراءة بين السطور في روايتك غير المتَّزنة عن ليلة المريض الأرِقَة، أستطيع أن أرسم صورة حالتك الذهنيَّة بدقَّةٍ كافية. إنَّها أوَّل مرَّة في سيرتك المهنيَّة تذوق فيها تلك الخمرة التي هي مكافأةُ كلِّ مجهوداتنا، أي كربَ النفس البشريَّة وارتباكها، وقد لعبَت برأسك. ولا أكاد ألومك. فلستُ أتوقَّع رؤوساً عتيقة على أكتافٍ شابَّة. هلِ استجاب المريضُ لبعضٍ من صُوَرك المروِّعة عن المستقبل؟ هل عملتَ على استعادة ذكرياتٍ الماضي السعيد ببعض النظرات الزاخرة بالإشفاق على الذات؟ أأحدثتَ بعض ارتعاشات الطَرَب في قعر معدته؟ أولم تعزف كمنجتك عزفاً عذباً؟ طيِّب، طيِّب، ذلك كلُّه طبيعيّ. إنَّما تذكَّر، يا عَلقَم، أنَّ الواجب يتقدَّم على المتعة. فإذا كان أيُّ تمادٍ في الأهواء والمتعة من قِبَلك يؤدِّي إلى فقداننا للفريسة في النهاية،

فستبقى الأبديَّةَ كلَّها مُتعطِّشاً إلى تلك الجَرعة التي تستمتع الآن كثيراً بأوَّل رشفةٍ منها. أمّا إذا استطعتَ، بمثابرتك على التعامل معه الآن وهنا برباطة جأش، أن تضمن نفسه أخيراً، فسيكون لك إلى الأبد: كأساً حيَّةً طافحةً من اليأس والرعب والذهول يمكنك أن ترفعها إلى شفتيك كلَّما شئتَ. إذاً، لا تدع أيَّة بهجَّة وقتيَّة مُفرِطة تصرفك عن عملك الحقيقيِّ في تقويض الإيمان ومنع تشكُّل الفضائل فيهِ. وقدِّم لي بلا إخفاق في رسالتك التالية خبراً كاملاً عن ردَّات فعل المريض تجاه الحرب، بحيث يمكننا أن نتفكَّر في أرجحيَّة بلائك حسناً بجعله وطنيّاً متطرِّفاً أو لاعُنفيّاً متحمِّساً.[1] فلدينا في الحرب واتجاهها احتمالاتٌ من كلِّ نوع. وفي هذه الأثناء، ينبغي أن أُحذِّرك من أن تأمَلَ الاستفادة من الحرب استفادةً تفوق الحدّ.

إنَّ الحرب مُسلِّيةٌ بالطبع. فالأهوال المباشرة ومُعاناة الآدميِّين إنعاشٌ شرعيٌّ ومُبهِج لعشرات الألوف من فَعَلتِنا الناشطين. ولكنْ أيُّ نفع دائم تعود علينا به إلاَّ إذا استغلَلناها للإتيان بالنفوس إلى أبينا الدنيّ؟ فعندما أرى المعاناة الوقتيَّة لدى الآدميِّين الذين يُفلِتون من أيدينا أخيراً، أشعرُ كما لو سُمح لي بأن أذوق أوَّل دورة من وليمة فاخرة ثُمَّ حُرِمتُ الباقي. وهذا أسوأ من عدم تذوُّقها أصلاً. فإنَّ العدوَّ، الملتزِم لأساليبه الهمجيَّة في المحاربة، يسمح لنا برؤية الشقاوة القصيرة الأمد لدى محبوبيه لكي يُغيظنا ويعذِّبنا فقط، لكي يهزأ بذلك الجوع الدائم الذي ، في أثناء المرحلة الحاليَّة من النزاع العظيم، لا ننكر أن حصاره يفرضه علينا. فلنفكِّر بالحريِّ إذاً كيف نستخدم هذه الحرب الأوروپيَّة، لا كيف نستمتع بها. ذلك أنَّ لها بضع نزعات واتجاهات، كامنة فيها،

١ يقصد أن الشيطان يميل إلى إيصالنا إلى أمرين متطرفين: الوطنية المتطرِّفة العمياء، أو اللاعنف الرافض لأي نوعٍ من المقاومة والدفاع عن النفس باستخدام السلاح.

ليست بحدِّ ذاتها لمصلحتنا على الإطلاق. لنا أن نأمل في مقدار كبير من القساوة والضراوة والجَور. ولكنْ إن لم نعتمد الحرص فلا بدَّ أن نرى الآلاف مُلتفِتين في ضيقهم إلى العدوّ، في حين أنَّ عشرات الآلاف الذين لا يتمادَون إلى ذلك الحدّ سينحرف اهتمامهم على كلٍّ حال عن أنفسهم إلى القِيَم والقضايا التي يعتقدون أنَّها أسمى من النفس. في علمِي أنَّ العدوَّ لا يوافق على كثير من هذه القضايا. ولكنْ في ذلك المجال هو مُجحِفٌ للغاية. فهو غالباً ما يقدِّر الآدميِّين الذين نذروا أنفسهم لقضايا يعتبرها سيِّئة، وذلك على الأساس السوفسطائيّ على نحوٍ شنيع جدّاً والقائل بأنَّ أولئك الآدميِّين اعتبروها صالحة وكانوا يتبعون أفضل ما يعرفونه. وتأمَّل أيضاً أيَّةُ ميتاتٍ مقيته تحصل في زمن الحرب. فالبشر يُقتلون في أماكن عرفوا أنَّهم قد يُقتلون فيها. وهم يذهبون إليها مُستعدِّين، إذا كانوا من حزب العدوِّ أصلاً. فكم يكون أفضلَ بكثير لنا لو أنَّ جميع البشر يموتون في دُور عناية بين أطبّاء يكذبون، ومُمرِّضات يكذبن، وأصدقاء يكذبون، مثلما درَّبناهم، واعدين المائتين بالحياة، مُشجِّعين على الاعتقاد أنَّ المرض عذرٌ للاسترسال في كلِّ هوىً، بل أيضاً – إذا كان فَعَلتُنا يعرفون عملهم جيِّداً – حاجبين كلَّ اقتراحٍ بإحضار كاهن لئلاَّ يكشف للمريض حالتَه الحقيقيَّة! وكم هو كارثيٌّ علينا ما تُعزِّزه الحرب من تذكُّر دائم للموت. فإنَّ واحداً من أفضل أسلحتنا، ألا وهو الانهماك في الدُّنيويَّات، يصير عديم النفع. إذ إنَّه في زمن الحرب لا يستطيع حتَّى آدميٌّ واحد أن يظن أنَّه سيبقى على قيد الحياة إلى الأبد.

أنا أعلم أنَّ شَجرَب وآخرين قد رأوا في الحروب فُرصةً عظيمة لشنِّ هجمات على الإيمان، ولكنَّني أعتقد أنَّ تلك النَّظرة قد ضُخِّمت. فإنَّ مُحازِبي العدوِّ الآدميِّين جميعاً قد قال لهم هو بصراحة إنَّ معاناة

الألم جزءٌ جوهريٌّ ممّا يدعوه "الفداء". وعليه فإنَّ إيماناً تُفسِده حربٌ ما، أو وبأٌ من الأوبئة، ما كان ليستحقّ عناء إفساده. وأنا أتكلّم الآن عن المعاناة المستمرَّة مُدَّةً طويلة، كتلك التي تُسبِّبها الحرب. فبالطبع، في لحظة الرُّعب أو الحرمان أو الألم، يمكنك أن تقتنص ضحيَّتك حين يكون عقله مُعلَّقاً بشكلٍ وقتيٍّ. ولكنْ حتّى في هذه الحالة، إذا اتَّصل بمركز قيادة العدوّ، فقد تبيَّن لي أنَّ الموقع يكون تحت الحماية في كل حينٍ تقريباً.

عمُّكَ المُحبُّ
خُربُر

٦

عزيزي عَلقَم،

يسرُّني أن أسمع أنَّ سنَّ مريضك ومهنته تُرجِّحان – وإن كانتا لا تؤكِّدان على الإطلاق – أنَّه سيُستدعى إلى الخدمة العسكريَّة. فنحن نُريد له أن يكون على أعلى درجة من اللايَقين، بحيث يزخر ذهنه بصُوَر متضاربة عن المستقبل، كلٌّ منها تبعث الأمل أو الخوف. وليس من شيء مثل الترقُّب والقلق يصدُّ ذهن الآدميِّ عن العدوّ. فهو يريد للناس أن يُعنَوا بما يعملونه، في حين أنَّ عملنا هو أن نُشغِل أفكارهم بما سوف يحدث لهم.

سيكون مريضك بالطبع قد اعتنق العقيدة القائلة بأنَّ عليه أن يخضع لمشيئة عدوِّنا صابراً. وما يعنيه العدوُّ بذلك هو في الأساس أنَّ على المريض أن يقبل بصبرٍ الضِّيقَ الذي قُسِم له فعلاً، أي القلق والترقُّب الحاضرَين. ففي هذا الوقت تقريباً عليه أن يقول "لتكُن مشيئتك"، ولأجل المهمَّة اليوميَّة القاضية بتحمُّل هذا الوضع عليه أن يطلب إعطاءه خبزه اليوميّ. فمهمَّتك أن تُعنى بألاَّ يفكِّر المريض أبداً بالخوف الحاليّ على أنَّه صليبُه المُعيَّن له، بل بأنْ يفكِّر فقط بالأشياء التي يخاف منها. فدعه يحسب تلك كلَّها صلبانه: دعه ينسَ أنَّها لا

يمكن أن تحدث كلُّها له، بما أنَّها غير متآلفة، ودعه يحاول أن يمارس الجَلَد والصبر حيالها كلِّها مُسبَّقاً.[١] ذلك أنَّ الاستسلام الفعليَّ في الوقت عينه لدزّينةٍ من المصائر المختلفة والافتراضيَّة يكاد يكون مستحيلاً. والعدوُّ لا يُعين كثيراً مَن يُحاوِلون القيام بذلك. إذ إن الاستسلام للمعاناة الحاليَّة والفعليَّة، ولو حيثُ يكون ما يعانيه هو الخوف، يكون أسهل، وغالباً ما يؤازره هذا التصرُّف المباشر.

ينطوي هذا على مبدإٍ روحيٍّ هامّ. فقد بيَّنتُ لك أنَّك تستطيع إضعاف صلواته بصرف اهتمامه عن العدوّ نفسه إلى حالات ذهنه هو من جهة العدوّ. ومن الناحية الأُخرى، تصبح السيطرة على الخوف أسهل حين يكون ذهن المريض مُحوَّلاً عن الغرض الذي يخاف منه إلى الخوف ذاته، باعتباره حالة راهنة وغير مرغوب فيها من حالاته الذهنيَّة الخاصَّة. وعندما يحسب الخوف صليبَه المُعيَّن له، فلا بدَّ أن يُفكِّر فيه على أنَّه حالةٌ ذهنيَّة. من ثَمَّ يغدو في وسع المرء أن يصوغ القاعدة العامَّة: في جميع أنشطة الذهن التي تخدم قضيَّتنا، شجِّع المريض على ألاَّ يكون واعياً لذاته؛ أمَّا في جميع الأنشطة المؤاتية للعدوّ، فاعطِف ذهنَه رجوعاً إلى ذاته.[٢] فاجعلْ إهانةً ما أو جسد امرأة يركِّزان اهتمامه نحو الخارج بحيث لا يُفكِّر قائلاً: "ها أنا الآن أدخل في الحالة المدعوَّة غضباً، أو في الحالة المُسمَّاة شهوة." وعلى العكس، دع التفكير "إنَّ مشاعري الآن تصير أكثر تقوى وورعاً، أو أكثر محبَّةً وخيريَّة" يُركِّز اهتمام هذا المريض على داخله بحيث لا يعود يُجاوِز بنظره نفسَه حتَّى يرى عدوَّنا أو إخوانَه هو[٣].

١ أي ليمارس في فكره الجلد، وكأنها واقف، وبالتالي يعاني بسبب ما فكره.

٢ يسعى الشيطان لجعل الإنسان منكراً لذاته في سبيل الشيطان، لكن منشغلاً بذاته نفسها في ما يخص الله.

أمّا في ما يتعلّق بموقفه الأكثر عموميّة تجاه الحرب، فيجب ألا تركن فوقَ الحدِّ إلى مشاعر البغضاء تلك التي يُشغَف الناس كثيراً بمناقشتها في المنشورات الدوريَّة، مسيحيّةً كانت أو غير مسيحيَّة. في وسعك طبعاً أن تشجِّع المريض، في كربه، على الانتقام لنفسه ببعض المشاعر الثأريَّة الموجَّهة نحو الزُّعَماء الألمان، وذلك جيِّد ما دام جارياً مجراه. غير أنّه غالباً ما يكون نوعاً من البِغضة الميلودراميَّة[4] أو الخياليَّة مُنصبّاً على كِباش مُحرَقة وهميِّين. فهو لم يلتقِ أولئك القوم قطُّ في الحالة الواقعيَّة: إنَّهم صُوَرٌ شكَّلها حسب النموذج الذي يُحصِّله من الصُّحف. وغالباً ما تكون نتائجُ مثلِ هذه البغضة مُخيِّبةً جدّاً؛ ومن بين البشر جميعاً، يُشكِّل الإنكليز في هذا المجال أدعى المُخنَّثين الجبناء للرثاء. فهم خلائق من ذلك النوع التَّعِس، إذ يُصرِّحون علناً بأنَّ التعذيب لأعدائهم جيِّد جدّاً ثُمَّ يُقدِّمون الشاي والسجائر لأوَّل طيّار ألمانيٍّ جريح يظهر عند الباب الخلفيّ!

ولئن فعلتَ ما شئت، فسوف يكون في نفس مريضك شيءٌ من الخيريَّة وحب الإحسان، وشيءٌ من الحقد أيضاً. فالأمر العظيم هو أن تُوجِّه الحقد نحو إخوانه الأقربين الذين يلتقيهم كلَّ يوم، وأن تدفع خيريَّته بعيداً إلى المحيط الأنأى، إلى أشخاص لا يعرفهم. وهكذا يصير الحقد حقيقيّاً على نحوٍ كلّيّ، والخيريَّة وهميَّة إلى أبعد حدّ. فلا خيرَ البتَّة في إضرام حقده على الألمان، إذا كانت في الوقت عينه عادةُ ممارسةِ الخير المهلكةُ تترسَّخ بينه وبين أُمِّه، وربِّ عمله، والرجل الذي يلتقيه في القطار.

فكِّر في زبونك كما لو كان سلسلة من الدوائر المتراكزة، أعمقُها

٣ يسعى الشيطان لجعلنا نركِّز على برّنا وحياتنا الروحية فننسى الله والآخرين.

٤ الميلودرامية: أي المتكلّفة والمبالغ فيها عاطفياً والتي يصعب تطبيقها عملياً.

إرادتُه، وتاليتُها عقله، والأخيرةُ تَصوُّره الخياليّ. فإنَّك لا تكاد ترجو في الحال أن تُقصِيَ من جميع الدوائر كلَّ ما تفوح منه رائحةُ العدوّ؛ ولكنَّ عليك أن تُواصِل دفع جميع الفضائل نحو الخارج حتَّى تستقرَّ أخيراً في دائرة الخيال الجامح، و دَفْعِ جميع الصفات المرغوبة نحو الداخل، إلى الإرادة. فلا تكون الفضائل مُهلِكةً لنا حقّاً إلاَّ بمقدار ما تتجسَّد في عاداتٍ تُمارَس، وذلك عند بلوغها دائرة الإرادة. (طبعاً، لستُ أعني ما يحسبه المريض إرادتَه مخطئاً، أيِ استشاطة الغضب والغيظ إذ يُقرِّر قراراتِه وأسنانُه مُطبَقةٌ بإحكام، بلِ المركز الحقيقيّ: ما يسمِّيه عدوُّنا القلب.) فجميع أنواع الفضائل التي يرسمُها الخيالُ الجامح، أوِ التي يقرُّها العقل، بل أيضاً - إلى حدٍّ ما - يهواها ويرغب فيها، لَن تُبعِد الإنسان عن بيت أبينا، وإنَّما بالحقيقة قد تجعله أكثر إضحاكاً وإمتاعاً حين يصل إلى هناك.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٧

عزيزي عَلقَم،

إنّي أتعجّب من سؤالك لي عن كون إبقاء المريض في جهل لوجودك بالذات أمراً جوهريًّا. فذلك السؤال – على الأقلّ في المرحلة الحاضرة من الصراع – قد أجابَتنا عنه القيادةُ العُليا: سياستُنا، في الوقت الراهن، تقضي بأن نُخفي أنفسنا. ولم تكن الحال بالطبع على هذا المنوال دائماً. فنحن بالحقيقة في مواجهة مأزق صعب. عندما لا يؤمِن الآدميُّون بوجودنا، نخسر جميع النتائج المُبهِجة المتمثّلة في الإرهاب المباشر ولا نصنع سَحَرة مشعوذين. ومن الناحية الأُخرى، عندما يؤمنون بوجودنا، لا يمكننا أن نجعلهم مادّيّين وشكوكيّين. على الأقلّ، حتّى الآن. إلاّ أنّ لديَّ آمالاً كباراً بأنّنا عندما يحين الأوان سنتعلّم كيف نُضفي على علومهم صِفتَي العاطفيّة والأُسطوريّة إلى حدٍّ عنده يتسلّل إليهم في الواقع ما هو إيمانٌ بنا (وإن لم يكن مدعوّاً بهذا الاسم) فيما يبقى الذهن البشريُّ مُوصَداً في وجه الإيمان بالعدوّ. ولهذا الغرض، قد يثبت نَفْع "قوّة الحياة" وعبادة الجنس وبعضُ نواحي التحليل النفسيّ. فلو تمكنا فقط من إنتاج صنيعنا الكامل، أي الساحر القائل بالمادّيّة، حيث لا يستخدم الإنسان ما يدعوه "القوى" على نحوٍ مُبهَم بل يتعبّد لها

بالحقيقة، في حين ينكر وجود "الأرواح" ، لبَدَت نهاية الحرب عندئذٍ ظاهرة للعيان. ولكنْ في هذه الأثناء يجب أن نُطيع الأوامر الصادرة إلينا. فلستُ أظنُّ أنَّك ستواجه كثيراً من الصعوبة في إبقاء المريض وسط الظلام. ذلك أنَّ حقيقة كون "الشياطين" شخصيَّاتٍ هزليَّةً على نحوٍ واسع الانتشار في الخيال العصريِّ سوف تُساعِدنا حتماً. فإنْ بدأ ينبعث في عقله أوهى شكٍّ من جهة وجودك، فأوحِ إليه بصورة كائنٍ مّا يرتدي ثوبَ بهلوانٍ أحمر ضيِّقاً، وأقنعه بأنَّه لمَّا كانَ لا يمكنه أن يؤمن بذلك الكائن فلا يقدر تالياً أن يؤمن بك (وهذا أُسلوبٌ قديمٌ لإرباك البشر تعلَّمناه من الكتب).

لم أنسَ وعدي بأن ننظر في وجوب جعل المريض وطنيّاً متطرِّفاً أو لاعنفيّاً متطرِّفاً. ينبغي أن نُشجِّع على كلِّ تطرُّف، ما عدا التطرُّف في التكرُّس للعدوّ. ليس دائماً بالطبع، بل في هذه الفترة الزمنيَّة. فبعضُ العصور فاترة وقانعة. عندئذٍ علينا أن نُهَدهِد البشر حتَّى يَغطُّوا في سبات عميق. أمَّا العصور الأُخرى، ومنها عصرُنا الحاضر، فهي غيرُ متَّزنةٍ وعرضةٌ للصراع الحربيّ. وعندئذٍ تكون مهمَّتنا أن نؤجِّج نارهم. فأيَّة زمرة صغيرة تجمعها معاً مصلحةٌ مّا يمقتها آخرون أو يتجاهلونها، تميل لأنْ تُنشئ داخل ذاتها دفيئةً من الإعجاب المتبادل، وتجاه العالم الخارجيِّ مقداراً كبيراً من الكبرياء والبغضاء يُضمَر بلا حياء لأنَّ "القضيَّة" ترعاه، وهو يُعتبَر مشاعر غير شخصيّة. حتَّى لو تواجدت تلك الجماعة الصغيرة أصلاً لأجل أغراض العدوِّ الخاصَّة، فإنَّ هذا يبقى صحيحاً. فنحن نريد للكنيسة أن تكون صغيرة ليس فقط بأن يتعرَّف بالعدوِّ عددٌ من الناس أقلُّ، بل أيضاً بأن يكتسب أولئك الذين يتعرَّفون به بالفعل البرَّ الذاتيَّ الدفاعيَّ ذا الحِدَّة المُقلِقة، ذاك الذي تتَّصف به جمعيَّةٌ سريَّة أو عصبةٌ ما. طبعاً إنَّ الكنيسة نفسها مَحميَّةٌ حمايةً شديدة، ونحن لم

ننجحْ تماماً بعدُ في أن نُضفيَ عليها جميع الخصائص التي يتميَّز بها الحزب. ولكنَّ أحزاباً ثانويَّةً في داخلها كثيراً ما أحرزت نتائج باهرة، من حِزبَي بولس وأبُلُّوس في كورنثوس حتَّى الأحزاب العليا والدُّنيا في كنيسة إنكلترا.

وإذا أمكن التأثير في مريضك حتَّى يصير أحد الذين يدفعهم ضميرهم للاعتراض دائماً، فإنَّه سيجد نفسه تلقائيّاً فرداً في جمعيَّة صغيرة، مُجاهِرة ومنظَّمة وغير مرحَّب بها عند الناس. وآثارُ ذلك في شخصٍ اهتدى إلى المسيحيَّة منذ عهدٍ قريب جدّاً ستكون جيِّدة على نحوٍ شبه مؤكَّد. لكن شبه مؤكَّد فقط، وليس مؤكَّد تماماً. فهل سبق أنْ ساورته شكوكٌ خطيرة بشأن مشروعيَّة الخدمة في حربٍ عادلة قبل نشوب الحرب الحاليَّة؟ وهل هو ذو شجاعة طبيعيَّة عظيمة، من العِظَم بحيث لا تكون لديه أيَّة هواجس يشعر بها بعضَ الشعور حيال الدوافع الحقيقية وراء لاعنفيَّته؟ وهل يمكنه، حين يكون أقرب إلى الصِّدقَ والاستقامة (ليس من بشريٍّ البتة قريباً جدّاً)، أن يشعر كلَّ الشعور بأنَّه مقتنع بكون الرغبة في إطاعة العدوِّ هي التي تحفزه؟ إن كان رجُلاً من هذا النوع فإنَّ لاعنفيَّته لا يُحتمَل أن تنفعنا نفعاً كثيراً، ومحتمَلٌ أن العدوَّ سوف يحميه من العواقب المعتادة للانتماء إلى طائفةٍ ما. وستكون خطَّتك الفُضلى، في تلك الحالة، أن تُجرِّب أزمةً عاطفيَّة، مُشوَّشة مُفاجئة، قد يخرج منها كمُهتدٍ مُضطرب إلى الوطنيَّة المُغالِية. إنَّ أموراً كهذه يمكن تولِّي أمرها حسناً في أغلب الأحيان. ولكنْ إذا كان ذلك الرجلَ كما أحسبُه، فجرِّبِ اللاعنفيَّة.

ومهما كانت وجهة النظر التي يعتنقها، فإنَّ مهمَّتك الرئيسة ستبقى المهمة ذاتها. دعه يُباشِر معاملة الوطنيَّة أو اللاعنفيَّة كجزءٍ من ديانته. ثمَّ دعه، تحت تأثير روح التحزُّب، يصل إلى حسبانه الوطنيَّة أو اللاعنفيَّة

الجزءَ الأهمّ. ثُمَّ تعهَّدْه، بهدوءٍ وبالتدريج، لبلوغ المرحلة التي فيها يصير الدِّين مجرَّد جزءٍ من "القضيَّة"، حيث تُقدَّر قيمة المسيحيَّة بشكل رئيسيّ من أجل الحجج التي يمكن أن تقدِّمها لمصلحة الجهد الحربيّ البريطانيّ أو لمصلحة اللاعنفيَّة. إنَّما الموقف الذي ينبغي لك أن تحترس منه هو ذاك الذي فيه تُعامَل الشؤون الوقتيَّة، جوهريًّا وبشكل أساسي، كمادَّةٍ للطاعة. فما إن تتمكَّن من جعل العالَم الحاضر غايةً، والإيمان وسيلة، حتَّى تكون قد كسبتَ زبونك تقريباً. وقليلٌ هو الفرق الذي يُحدِثُه نوعُ الغايات الدنيويَّة الذي يسعى إليه. فإذا ما كانت الاجتماعات والأوراق والسياسات والتحرُّكات والقضايا والحملات تهمُّه أكثر من الصلوات والممارسات المقدَّسة والمحبَّة والإحسان، فهو لنا... وكلَّما كان "متديِّناً" (بمقتضى هذه الشروط والمواصفات) كان امتلاكُنا له أضمن وآمَن. وفي وسعي أن أُريَك سجناً كبيراً هنا في الأسفل يغصُّ بأمثالِه.[1]

عمُّك المُحبُّ
خُربُر

١ لا شك أن القضايا الإنسانية والسياسية تحتاجُ إلى أن تُعامَل معامَلةً صحيحة من منطلق الإيمان. فيجب أن يكون الإيمان هو الأساس والوسيلة والهدف، وخدمة هذه القضايا جزءٌ من الإيمان والحياة المسيحية. لكن مَن يستخدم هذه الديانة لخدمة قضاياه فقط يكون قد جعل الديانة مجرَّد وسيلة لمُعالَجة قضاياه.

٨

عزيزي عَلقَم،

إذاً، لديك "آمال كبار بأنَّ الطَّور الدينيَّ عند مريضك يتلاشى"، أليس كذلك؟ لطالما حسبتُ أنَّ كليَّة التدريب قدِ انهارت منذ عيَّنوا صُلبغُوب رئيساً لها، والآن تأكَّد لي ذلك. ألم يُحدِّثك أحدٌ قطُّ عن قانون التموُّج؟

إنَّ الآدميِّين برمائيُّون، نصفُهم روح ونصفهُم حيوان. (وقد كان تصميم العدوّ على إنتاجِ هجينٍ من هذا النوع أحد العوامل التي حملت أبانا على سحبِ دعمه له.) فمن حيث كونُهم أرواحاً، هم ينتمون إلى العالَم الأبديّ. ولكنَّهم من حيث كونُهم حيواناتٍ يُقيمون في الزَّمن. وهذا يعني أنَّه بينما يمكن توجيه أرواحهم نحو غرض أبديّ، تبقى أجسادهم وأهواؤهم وتصوُّراتهم عرضة للتغيُّر المستمر. إذ إنَّ كون المرء في الزمن يعني أنَّه يتحوَّل ويتغيَّر. وعليه، فإنَّ أقرب سبيل لديهم إلى الثبات هو التموُّج: الرجوع المتكرِّر إلى مستوىً يعودون فيه إلى السقوط تكراراً، في سلسلة من القِيعان والقِمَم. ولو راقبتَ مريضك عن كثب، لرأيت هذا التموُّج في كلِّ دائرة من دوائر حياته. فإنَّ اهتمامه بعمله، ووداده لأصدقائه، وشهواته الطبيعيَّة، كلُّها تعلو وتهوي.

وما دام يعيش على الأرض، فإنَّ مراحل الغنى العاطفيّ والجسمانيّ والنشاط تتبادل مع مراحل اللامبالاة والفتور والضعف. فالجفاف والبلادة اللذان يجتازهما مريضك الآن ليسا، كما تَفترِضُ بشغف، صنيعكَ الرائع، بل هما مجرَّد ظاهرة طبيعيَّة لن تعود علينا بأيِّ نفعٍ إلاَّ إذا استغلَلتَها أحسن استغلال.

وكي تُقرِّر أيُّ استغلالٍ لها هو الأفضل، ينبغي أن تسأل أيَّ استعمال يريد العدوُّ أن يستعملها، ثمَّ تعمل العكس. والآن قد يُفاجئُك أن تعلم أنَّ العدوَّ في مساعيه لامتلاك النفس امتلاكاً دائماً، يُركِن إلى القِيعان أكثر من إركانه إلى القِمَم. فإنَّ بعضاً من صفوة محبوبيه قد اجتازوا قِيعاناً أطول وأعمق ممّا اجتاز أيُّ شخص آخر. وإليكَ السبب. إنَّ الآدميَّ عندنا هو طعامٌ في الجوهر، وهدفُنا أن تمتصَّ إرادتُنا إرادتَه، أن نُضاعِف مساحة ذاتيَّتنا على حسابها.

غير أنَّ الطاعة التي يطلبها العدوُّ من البشر شيءٌ مختلف تماماً. فعلى الواحد منّا أن يواجه الحقيقة المتمثِّلة في أنَّ مُجمَل الحديث عن محبَّته للبشر، وأنَّ الخدمة له هي حريَّة كاملة، ليست مجرَّد دعاية (كما يسرُّ المرء أن يحسب)، بل حقيقةٌ مُروِّعة. فهو حقّاً يريد بالفعل أن يملأ الكون بكثير من الصُّوَر الصغيرة البغيضة المُطابقة لذاته: خلائق تكون حياتهم، على مقياسها المصغَّر، مثل حياته في نوعيَّتها، ليس لأنَّه قد تشرَّبهم وامتص إراداتهم، بل لأنَّ إرادتهم تتوافق طوعيّاً مع إرادته.

نحن نُريد قطعاناً يمكن أن يصيروا في النهاية طعاماً. أمّا هو فيريد خُدَّاماً يصيرون في الأخير أبناءً. نحن نريد أن نمتصَّ إلى دواخلنا. أمّا هو فيريد أن يتدفَّق ويعطي إلى الخارج. نحنُ فارغون ونرغب في الامتلاء. أمّا هو فملآنٌ وفيّاض. فإنَّما غرض الحرب عندنا هو الوصول إلى عالم فيه قد جذب أبونا الدنيُّ جميع الكائنات الأُخرى إلى داخل ذاته، في حين

أنَّ العدوَّ يريد عالماً ملآنَ كائنات اتَّحدت بذاته لكنَّها ظلَّت متمايزة.

ها هنا يأتي دور القِيعان. فلا بدَّ أن تكون قد تساءلتَ كثيراً من المرات عن سبب عدم استخدام العدوّ لقوَّته بشكلٍ أكبر كي يكون حاضراً على نحوٍ ملموس بالنسبة للنفوس البشريَّة إلى أيّ مدىً يختاره وفي أيَّة لحظة. ولكنَّك الآن ترى أنَّ "ما لا يُقاوَم" و "ما لا يقبل الجدل" هما السلاحان اللذان تحول طبيعة خطته في ذاتها دون استخدامه لهما. فإنَّ مجرَّد إبطال الإرادة البشريَّة (وهو ما لا بدَّ أن يُحقِّقه حضورُه الملموس بدرجة قوية بما يكفي) سيكون عديم النفع عنده. إنَّه لا يستطيع أن يغتصِب اغتصاباً، بل إنَّه فقط يتودَّد تودُّداً. ففكرته الخسيسة هي أن يأكل الكعكة ويحوزها: إذ ينبغي للخلائق أن يتَّحدوا به إلى التمام إنَّما يظلُّون هم أنفُسَهم. فمجرَّد إلغائهم، أوِ اهتضامهم، ما كان ليؤدِّي غرضه. وهو مستعدٌّ للقيام بشيءٍ من الهيمنة في البداية. ذلك أنَّه يزوِّدهم عند مباشرة الرحلة بإشاراتٍ إلى حضوره تبدو عظيمةً في نظرهم، رغم كونها واهية، تصحبها عذوبةٌ عاطفيَّة وانتصارٌ سهل على التجربة. ولكنَّه لا يسمح أبداً باستمرار الشؤون على هذه الحال مدَّةً طويلة. فهو ينكفئ عاجلاً أو آجلاً، إن لم يكن بالحقيقة فعلى الأقلّ من دائرة اختبارهم الواعي، حاجباً جميع تلك الدعائم والحوافز. إنَّه يترك المخلوق يقف على رجليه، كي يؤدِّي بدافع الإرادة وحدها واجباتٍ فقدت كلَّ رونق ومتعة. ففي أثناء أوقات القِيعان هذه وما يُشابِهها، أكثر بكثير جدّاً ممَّا في أثناء أوقات الذُّرى، ينمو الآدميُّ ليصير مخلوقاً من ذلك النوع الذي يُريد له عدوُّنا أن يكونه.

من هنا كانت الصلوات المرفوعة في حالة الجفاف هي تلك التي تسرُّه أفضل سرور. ويمكننا أن نُجرجِر مرضانا بالإغواء المستمرّ، لأنَّنا ننوي أن نأتي بهم إلى مائدتنا فحسب، وكلما عرقلْنا إراداتهم كان

أفضل.

فلا يمكن أن "يُغوي" هو الناس للفضيلة كما نغويهم نحن للرذيلة. إنَّه يريد لهم أن يتعلَّموا المشي، ولذلك ينبغي أن يسحب يده؛ ولو توافرت فعلاً مجرَّد الرغبة في المشي لسرَّه ذلك حتى مع تَعثُّرهم. حذار أن تنخدع، يا عَلقَم! فإنَّ قضيَّتنا لا تكون يوماً عرضةً للخطر أكثر منها حين يعمد الآدميُّ، وهو ما زال قاصداً إطاعة مشيئة عدوِّنا رغم انقطاع رغبته في ذلك، إلى التطلُّع حواليه في أرجاء عالَم يبدو أنَّ كلَّ أثرٍ من آثار العدوِّ قد تلاشى منه، ويتساءل عن سبب التَّخلِّي عنه، ومع ذلك يُثابِر على الطاعة.

غير أنَّ القِيعان تُوفِّر فُرصاً لمصلحتنا نحن أيضاً. وفي الأُسبوع المُقبِل سأُزوِّدك ببعض التعليمات في كيفيَّة استغلال تلك القيعان.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٩

عزيزي عَلقَم،

أرجو أن تكون رسالتي الأخيرة قد أقنعتك بأنَّ قاع البَلادة أو "الجفاف" الذي يجتاز فيه مريضُك حاليّاً لن يمكّنك، بحدِّ ذاته، من حيازة نفسه، بل ينبغي أن يُستغلَّ أحسن استغلال. أمَّا الأشكال التي ينبغي أن يتَّخذها ذلك الاستغلال، فسأنظر فيها الآن.

في المقامِ الأوَّل، تبيَّن لي كلَّ حين أنَّ فترات القِيعان الخاصَّة بالتموُّج البشريِّ توفِّر فرصةً ممتازة لجميع التجارب الحسِّيَّة، ولا سيمَّا إغواءات الجنس. قد يُفاجئك هذا، لأنَّ في فترات القِمَم بالطَّبع مزيداً من الطاقة الجسديَّة، وبالتالي مزيداً من إمكانات الشهوة. ولكنَّ عليك أن تتذكَّر أنَّ قوى المقاومة تكون آنذاك أيضاً على مستواها الأعلى. فمن المؤسف أنَّ الصحَّة والحيويَّة اللَّتين تريد أن تستخدمهما لابتعاث الشهوة يمكن استخدامُهما بمنتهى السهولة لأجل العمل أو الرياضة أو التفكير أو التسلية البريئة. وتكون للهجوم فرصةُ نجاحٍ أفضلُ بكثير حين يكون عالَمُ الإنسانِ الداخليُّ بكامله كئيباً وبارداً وخاوياً. ويجب أن تأخذ في الحسبان أيضاً أنَّ النشاط الجنسيَّ في فترة القاع يختلف في نوعيَّته اختلافاً خبيثاً عنه في فترة القمة: مِن النادر آنذاك أن يؤدِّي إلى الظاهرة

التافهة التي يدعوها الآدميُّون "الوقوع في الحبّ"، ويسهل أكثر جدّاً أن يُجرَّ إلى الانحرافات، كما يقلُّ أكثر جدّاً أن تُلوِّثه تلك المُلازماتُ النبيلة والخياليَّة – بل أيضاً الروحيَّة – التي غالباً ما تجعل النشاط الجنسيَّ الآدميَّ مُخيِّباً للغاية. وهكذا أيضاً حالُ شهوات الجسد الأُخرى. فإنَّ جعْل زبونك سكِّيراً مُدمِناً أيسرُ عليك حين تُلحُّ عليه كي يلجأ إلى الشراب كمُسكِّن وهو بليدٌ ومُتعَب من أن تُشجِّعه على استخدامه كوسيلةٍ للمَرَح بين أصدقائه وهو مسرورٌ ومُنبسِط. إيّاك أن تنسى البتَّة أنَّنا حين نكون مُتعامِلين مع أيَّة متعة، في صورتها السليمة والسويَّة والمُشبِعة، فنحن – بمعنىً من المعاني – على أرض العدوّ. في عِلمي أنَّنا قد ربحنا نفوساً كثيرة من خلال المتعة. ومع ذلك، فالمتَع هي من اختراع عدوِّنا، لا من اختراعنا نحن. فهو قد صنع المتَع، وجميعُ مساعينا حتَّى الآن لم تُمكِّنّا منِ ابتداع متعةٍ واحدة. وأقصى ما نستطيع عمله هو أن نُشجِّع الآدميِّين على أن ينتهبوا المتَع التي ابتكرها عدوُّنا، في أوقاتٍ – أو بطرقٍ أو إلى حدود – قد حرَّمها هو. من هنا نحاول دائماً أن نعمل على تحويل الحالة الطبيعيَّة لأيَّة متعة من المتَع بعيداً إلى الحالة التي فيها تكون أقلَّ طبيعيَّةً، وأقلَّ تذكيراً بمُوجِدها، وأقلَّ إرضاءً. والوصفة الناجعة هنا هي إثارةُ الرغبة المتزايدة بشكلٍ مستمر في متعةٍ متناقصة بشكل مستمر. إنها وصفةٌ أجدرُ بالاعتماد؛ وتنطوي على أُسلوب تَرَفٍ أو تأنُّقٍ أفضل. فأنْ نمتلك نفس الإنسان ونُعطيَه لاشيئاً في المقابل ذلك هو ما يسرُّ قلب أبينا حقّاً. والقِيعان أوقات مباشرةِ العمليَّة.

غير أنَّ ثمَّةَ طريقةً فُضلى أكثر لاستغلال قاع من القِيعان؛ وهذه الطريقة هي أفكار المريض الخاصَّة بشأن ذلك القاع. وكما هي الحالُ دائماً، تكمن الخطوة الأولى في حجب ذهنه عن المعرفة. فلا تدَعه يشكَّ في قانون التموُّج. وليفترِضْ أنَّ مشاعر الغيرة والحماسة التي صاحبتِ

اهتداءه كان يمكن أن يُتوقَّع استمرارُها، وكان ينبغي أن تستمرَّ، إلى ما لا نهاية، وأنَّ جفافه الحاليَّ هو أيضاً وضعٌ دائم. وما إن تُثبِّت جيداً هذا المفهوم الخاطئ في رأسه، حتَّى يتسنَّى لك من ثَمَّ أن تُواصِل عملك بطُرقٍ شتَّى. إنَّما يتوقَّف الأمر كلُّه على كون زبونك إمَّا من النَّوع المكتئب الذي يمكن أن يُجرَّب باليأس، وإما من النوع المُبتلى بالتفكير الرغبيِّ[1] الذي تمكن طمأنتُه إلى أنَّ كلَّ شيء هو على ما يُرام. والنوعُ الأوَّل آخذٌ في التضاؤل بين البشر. فإن صدف أنَّ مريضك ينتمي إليه، يكون كلُّ شيءٍ سهلاً. ما عليك إلاَّ أن تُبقيه بعيداً عن المؤمنين ذوي الخبرة (وهذه مهمَّة سهلة في هذه الأيَّام)، وأن تُوجِّه انتباهه إلى المقاطع المؤاتية في كتابه المقدَّس، ثُمَّ أن تُطلِقه في العمل على تحقيق الهدف المؤيِس المتمثِّل في استرجاع مشاعره القديمة بقوَّة الإدارة فقط، وهكذا نُسيطِر نحن على اللعبة. وإن كان من النوع الأكثر أملاً، يكون عملك أن تجعله يُذعِن لحرارة روحه المنخفضة حاليّاً حتَّى يصير بالتدريج قانعاً بها، مُقنِعاً نفسه بأنَّها ليست شديدة الانخفاض على كلِّ حال. ولن يمضي أُسبوعٌ أو أُسبوعان حتَّى تُباشِر تشكيكه ليتساءل عن أيَّام إيمانه الأولى: ألم تكُن على الأرجح تنطوي على شيءٍ من المُبالغة أو الإفراط؟ حدِّثه عن "الاعتدال في كلِّ أمر." فإذا تسنَّى لك مرَّةً أن توصله إلى حدِّ التفكير بأنَّ "الدِّين جيِّدٌ كلُّه حتَّى نُقطةٍ معيَّنة"، بات في وسعك أن تشعر بسعادة غامرة من جهة نفسه. ذلك أنَّ الدِّين المعتدل جيِّدٌ لنا مَثلُه مثل اللاَّدين تماماً... وأكثرُ تسليةٍ لنا.

هذا، وتكمن إمكانيَّة أُخرى في الهجوم المباشر على إيمانه. فحين تكون قد حملتَه على افتراض كون حالة القاع دائمةً، أفلا يمكنك إقناعه بأنَّ "مرحلته الدينيَّة" ستتلاشى تماماً كجميع مراحله السابقة؟ طبعاً،

[1] التفكير الرغبي: اعتقاد المرء بصحة شيءٍ لمجرَّد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحاً.

ليس من طريقة ممكنة التصوُّر للانتقال بالتفكير المنطقيّ من الافتراض القائل "إنّني أفقد الاهتمام بهذا الأمر" إلى الافتراض القائل "إنَّ هذا الأمر زائف." ولكنْ، كما سبق أن قلتُ، ما ينبغي أن تركن إليه هو الجعجعة وليس المنطق والعقل. ومن شأن مجرَّد الكلمة "مرحلة" أن تُنجِز الحيلة على الأرجح. وأنا أفترض أنَّ المخلوق قد اجتاز بضع مراحل قبلاً، (جميعُهم قدِ اجتازوا) وأنَّه يشعر دائماً بالتفوُّق والتفضُّل حيال المراحل التي طلع منها، ليس لأنَّه قد انتقدها حقّاً، بل لكونها ببساطة جزءاً من الماضي. (أرجو أنَّك تُبقيه مُقتاتاً جيِّداً بالأفكار الغامضة حول التقدُّم والتحسُّن ووجهة النظر التاريخيَّة، وتزوِّده بكثير من السِيَر العصريَّة كي يقرأها؟ فالأشخاص المذكورون فيها يطلعون دائماً من مراحلَ أو حالات؛ أليس كذلك؟)

هل فهمتَ الفكرة؟ اصرفْ ذهنه بعيداً عن التعارُض الصريح بين الصواب والخطأ، وأشغِله بتعابير مُبهَمة عذبة: "كانت تلك مرحلةً من المراحل" ... "لقدِ اجتزتُ ذلك كلَّه." ولا تنسَ تلك الكلمة المُبارَكة: "مُراهِق"!

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

١٠

عزيزي عَلقَم،

سرَّني أن أسمع من نَطّنتوف أنَّ مريضك قد وثّق عرى الصداقة مع بعض المعارف الجُدد المرموقين، وأنّك على ما يبدو قد استخدمتَ هذا الحَدَث بطريقة واعدةٍ حقّاً. وقدِ استنتجتُ أنَّ الزَّوجين المكتهلَين[١] اللذين عرَّجا عليه في المكتب هما تماماً من نوع الناس الذين نُريد له أن يتعرَّف بهم. فهُما غنيَّان وذكيَّان ومُفكّران سطحيَّان، وشُكوكيَّان بارعان تُجاه كلِّ ما في العالم. كما استنتجتُ أنَّهما أيضاً لاعُنفيَّان على نحوٍ مُبهَم، لا على أساسٍ أخلاقيّ بل من جرّاء عادةٍ مُتأصِّلة في النفس تدفع إلى التقليل من شأن أيِّ شيء يُعنى به جمهورُ إخوانهما البشر، ومن جرّاء مقدار ضئيل من الشيوعيَّة الأنيقة المُجارية للموضة والأدبيَّة الصِّرف. إنَّ هذا أمرٌ مُمتاز! ويبدو أنَّك قدِ استغللتَ جيِّداً كلَّ غروره الاجتماعيّ والجنسيّ والعقلانيّ. زِدني علماً: هل ألزم نفسه بآرائه على نحوٍ عميق؟ لستُ أعني مُجرَّد الكلام. فإنَّ ثمَّة تمثيلاً ماكراً في النظرات والنبرات والضحكات يستطيع به الإنسان أن يوحي بأنَّه ينتمي إلى الحزب نفسه الذي ينضوي تحت لوائه أُولئك الذين يتحدَّثُ إليهم.

١ المكتهل: هو الذي في نصف العمر.

ذلك هو نوعُ الخداع الذي ينبغي لك أن تُشجِّع عليه بشكلٍ خاصٍّ، لأنَّ المرء نفسه لا يدرِك هذا الأمر. ومتَّى أدركه، تكونُ قد صعَّبتَ عليه الانسحاب من هذا الحزب.

لا شكَّ بأنَّه سيتبيَّن له سريعاً جدّاً أن إيمانه الخاصَّ مُتعارِضٌ على خطٍّ مستقيم مع الافتراضات التي تتأسَّس عليها جميع المُحادثات بين أصدقائه الجدد. ولستُ أعتقد أنَّ لذلك كثيراً من الأهميَّة، على شرط أن تُقنِعه بإرجاء أيِّ اعترافٍ صريح بالحقيقة. وسيكون القيام بهذا سهلاً، بمساعدةٍ من الخجل والكبرياء والاعتدال والزهو. وما دام الإرجاء مستمرّاً، يبقى الإنسان في وضع زائف. فإنَّه سيصمت حين ينبغي أن يتكلَّم، ويضحك حين ينبغي أن يظلَّ صامتاً. وسوف يتظاهر، أوَّلاً من طريق تصرُّفه ولكنْ قريباً من خلال كلامه، بكلِّ نوع من المواقف الساخرة والشكوكيَّة التي ليست له بالحقيقة. ولكنْ إذا أحسنت مُخاتلتَه ومداعبته، فقد تصير هذه المواقف له. فجميع البشر ميّالون إلى أن يصيروا ما يتظاهرون بكونهم إيّاه. إنَّما هذا أوَّلي. فالمسألة الفعليَّة تكمن في كيفيَّة الاستعداد لهجوم العدوِّ المعاكس.

إنَّ الأمر الأوَّل هو أن تؤخِّر بقدْر الإمكان اللحظةَ التي فيها يُدرِك كون هذه المتعة الجديدة تجربةً. ولمَّا كان خُدَّام العدوِّ ما برحوا يَعِظون عن "العالم" باعتباره واحدةً من التجارب القياسيَّة الكبيرة، طوال ألفَي سنة، فقد يبدو القيام بهذا الأمر صعباً. ولكنْ من حُسن حظِّنا أنَّهم قد قالوا عنه القليلَ طوال العقود القليلة الأخيرة. فلئن كنتُ أرى في الكتاباتِ المسيحيَّة العصريَّة كثيراً من الحديث عن عبادة المال (أكثر ممّا أُحِبُّ في الواقع)، فأنا أرى قليلاً من التحذيرات القديمة بشأن الأباطيل الدنيويَّة واختيار الأصدقاء وقيمة الوقت. هذه كلُّها قد يُصنِّفها مريضُك بوصفها "طهوريَّة" أو "تزمُّتاً". وهل لي أن أُعلِّق في هذه المناسبة بأنَّ

القيمة التي أضفيناها على تلك الكلمة[٢] هي واحدٌ من الانتصارات الوثيقة والقوية فعلاً في آخِر مئة سنة؟ فبِها نُنقِذ كلَّ سنة آلاف البشر من ضبط النفس والعفَّة ورزانة الحياة.

ولكنْ عاجلاً أو آجلاً، يجب أن تتَّضح لزبونك الطبيعةُ الحقيقيَّة لأصدقائه الجُدد. عندئذٍ يجب أن تعتمد حِيَلُك على ذكاء المريض. فإن كان غبيّاً كبيراً على نحوٍ كافٍ، يمكنك أن تجعله يدرك حقيقة أولئك الأصدقاء في أثناء غيابهم فقط؛ فإنَّ في وسعنا أن نجعل حضورهم يُلاشي كلَّ انتقاد. وإذا نجح هذا، فمن الممكن حملُه على أن يعيش حياتين مُتوازيتين فتراتٍ طويلةً جدّاً، كما أعرف أنَّ كثيرين من الآدميِّين يعيشون. ولسوف لا يظهر فقط، بل يكون بالفعل، شخصاً مختلفاً في كلِّ واحدةٍ من الدائرتين اللتين يرتادهما. وإن أخفق هذا، فثمة أُسلوبٌ أدهى، وأدعى للتسلية. فمن الممكن جعلُه يجني متعةً مؤكَّدة من إدراكه أنَّ جانبيَ حياته هذين مُتناقِضان. ويتمُّ لك ذلك باستغلال غروره. ففي وسعك تعليمُه أن يستمتع بالجُثوِّ قرب البقَّال يومَ الأحد، فقط لأنَّه يتذكَّر أنَّ البقَّال لا يُعقَل أن يعيَ العالَم المهذَّب والزائف الذي يُقيم هو فيه مساءَ الأحد؛ وعلى نقيض ذلك: أن يستمتع بالفجور والتجديف عند شرب القهوة مع أولئك الأصدقاء الرائعين استمتاعاً زائداً لأنَّه يعي عالَماً "روحيّاً" و"أعمق" في داخله لا يستطيعون إدراكه. هل فهمتَ الفكرة؟ إنَّ الأصدقاء الدُّنيويِّين يحتكُّون به من جانب، والبقَّال يحتكُّ به من الجانب الآخر، وهو ذلك الرجل الكامل المُتَّزِن البارع الذي يتجاوزهم بنظره أجمعين. وهكذا، فبينما يمارس الخداع دائماً تجاه مجموعتين من الأشخاص على الأقلّ، سيشعر

٢ يقصد "طهورية" (puritanism)، وهي مرتبطة بحركة التطهُّريين الذين كانوا يشدِّدون على الطهارة الأخلاقية في كافة جوانب الحياة.

لا بالخجلِ بل بتيّار خفيٍّ من الرِّضى الذاتيّ دائمِ الجريان. أخيراً، إذا أخفق كلُّ شيء آخر، يمكنك أن تُقنِعه، من غيرِ اعتبارٍ للضَّمير، بأن يستمرَّ في الصداقة الجديدة على أساس كونه – بطريقةٍ غيرِ مُحدَّدة من الطُرق – يعمل "خيراً" لهؤلاء القوم بمجرَّد شُربه لكوكتيلهم وضحكه لنُكاتهم، وعلى أساس أنَّ من شأن توقُّفِه عن ذلك أن يكون "تزمُّتاً" و"تعصُّباً" و(بالطبع) "طهوريّاً" متحجِّراً.

وفي هذه الأثناء، ستتَّخذ بالطبع الاحتياط البديهيَّ المتمثِّل في جعل هذا التطوُّر الجديد يحفزه على أن يُنفِق أكثر ممَّا يسعُه، ويُهمِل عمله وأُمَّه. فإنَّ غيرتَها وذُعرها، ومراوغته أو فظاظته، ستكون نفيسةً في مُفاقمة التوتُّر في البيت.

عمُّك المُحبُّ
خُربُر

١١

عزيزي عَلقَم،

من الواضح أنَّ كل شيء يسير على خير ما يُرام. فأنا مسرورٌ سروراً خاصّاً بأن أسمع أنَّ الصديقين الجديدين قد عرَّفاه الآن بالشلَّة كلِّها. إذ إنَّ هؤلاء جميعاً، كما يتبيَّن لي من مكتب السِجلاّت، أُناسٌ يمكن الاعتماد عليهم كلِّيّاً. فهم مُستهزئون مُثابِرون ثابتون، ومُحِبُّون للدُّنيا مُتمادون، يتقدَّمون بغير جرائم مشهودة نحو بيت أبينا بهدوءٍ وراحة. إنَّك تتحدَّث عن كونهم ضحّاكين بشكل كبير. فلي ثقة بألاَّ يعني هذا أنَّ لديك انطباعاً بأنَّ الضحك بهذه الصورة يصبُّ في مصلحتنا دائماً. وهذه النقطة جديرة ببعض من الانتباه.

إنَّني أقسم دواعي الضَّحك البشريِّ إلى فَرَح، ومَرَح، ونُكتةٍ بالمعنى الحصريّ، وصفاقةٍ أو وقاحة. وسترى أوَّلَ دواعيه (أي الفرح) بين الأصدقاء والأحبّاء إذ يلتئم شملُهم عشيَّةَ عطلة ما. كما أنَّ ذريعةً ما، على سبيل الدُّعابة، تتوافر عادةً بين البالغين، ولكنَّ السهولة التي بها تؤدِّي أيسرُ الطُّرَف إلى الضَّحك في وقتٍ مثل ذاك تُبيِّن أنَّها ليست الداعيَ الحقيقيّ. أمَّا ما هو ذلك الداعي الحقيقيُّ فأمرٌ لا نعرفه. ويُعبَّر عن شيءٍ مثِله في مقدارٍ كبير من ذلك الفنِّ المَقيت الذي يدعوه

الأَدميُّون موسيقى، كما ينوجد في السماء شيءٌ مثلُه: تسارعٌ عديم المعنى في إيقاع الاختبار السماويّ، مُبهَمٌ تماماً عندنا. فإنَّ ضحكاً من هذا النَّوع لا ينفعنا أيَّ نفع، وينبغي دائماً ألاَّ نُشجِّع عليه. ثُمَّ إنّ هذه الظاهرة بحدِّ ذاتها مُثيرة للاشمئزاز، وهي إهانةٌ سافرة لحقيقة جهنَّم وكرامتها وقَتامِها.

أما المَرَح فمرتبطٌ بالفرَح ارتباطاً وثيقاً، وهو نوعٌ من الرَّغوة العاطفيَّة يطلع من غريزة اللَّعِب. وهو ينفعنا نفعاً قليلاً جدّاً. طبعاً، يمكن استخدامه أحياناً لصرف الأَدميِّين عن شيءٍ آخر غيره يودُّ العدوُّ لهم أن يشعروا به أو يفعلوه. ولكنَّه في حدِّ ذاته ينطوي على نزعات غير مرغوبٍ فيها مطلقاً. فهو يُعزِّز المحبَّة والإحسان، والجرأة، والرِّضى، وشروراً أُخرى كثيرة.

أمّا النُّكتة بالمعنى الحصريِّ، وهي تنطلق لدى الإدراك المفاجئ للتعارُض أوِ التناقض، فإنَّها حقلٌ واعدٌ أكثر. لستُ أُفكِّر أساساً بالدُّعابة البذيئة أو الدَّاعرة التي غالباً ما تكون نتائجها مُخيِّبة، على الرُّغم من اعتماد مُجرِّبينا الأردياء عليها كثيراً. ففي الواقع أنَّ الأَدميِّين منقسمون حول هذه المسألة إلى فئتين انقساماً جليّاً إلى حدٍّ بعيد. ذلك أنَّ مِنَ الناس مَن يعتبرون أنْ "ليس من هوىً خطيراً خطورةَ الشهوة،" والطُّرفة البذيئة عندهم تمنع إثارة الفسق تحديداً ما دامت تصير مُضحِكة؛ ومِنَ الناس مَن يُثار الضحكُ والشهوة لديهم في اللحظة عينها وبواسطة الأُمور ذاتها. والفئةُ الأولى تستبعد النُّكات الخاصَّة بالجنس لأنَّها تُثير كثيراً من التناقُضات.

أمّا الفئة الثانية فتتعهَّد التناقُضات وترعاها لأنَّها تُوفِّر ذريعةً للتحدُّث عن الجنس. فإن كان زبونك من الصنف الأوَّل، فالدُّعابة الداعرة لن تفيدك. ولن أنسى البتَّة الساعاتِ التي بدَّدتُها (ساعاتٍ كانت لي مُمِلَّةً

على نحوٍ لا يُطاق) على واحدٍ من مَرضايَ الأوائل في الحانات وغُرَف المُدخِّنين قبل أن أتعلَّم هذه القاعدة. فاكتشِفْ إلى أيَّة فئةٍ ينتمي مريضك، واحرصْ على ألاَّ يكتشف هو ذلك.

وأمَّا استخدام النُّكات أو الدُّعابة استخداماً حقيقيّاً فينحو منحىً مختلفاً تماماً، وهو واعدٌ على الخصوص بين الإنكليز اللذين يأخذون "حسَّ الدعابة" عندهم على مَحمِل الجِدِّ البالغ بحيث يكاد أن يكون النقصُ في هذا المجال هو النقصَ الوحيد الذي يشعرون بالخزي إزاءه. فالفُكاهة عندهم هي نعمةُ الحياةِ الكليَّةُ العزاء والمُبرِّرة لأيِّ شيء (انتبه لهذه الصفة). من هنا كانت وسيلةً لا تُقدَّر بثمن لتبديد الحياء. فإنْ سمح إنسان للآخرين ببساطة أن يدفعوا مالاً عنه، يكون "دنيئاً". وإنْ فاخر بذلك على سبيل المزاح وسخر من رفقائه لأنَّه "فاز عليهم"، لا يعود "دنيئاً" بل يصير فتىً "مُضحِكاً". ولئن كان الجبن السافر مَعيباً، فمن الممكن أن يُمرَّر الجبنُ الذي يتباهى به المرء بمبالغات فُكاهيَّة، وإيماءات مُضحِكة، باعتباره هزليّاً.

كذلك القساوةُ مُخزية، إلاَّ إذا استطاع الإنسان القاسي أن يُمثِّل قساوته بمظهر المُداعَبة السَّمِجة. ثمَّ إنَّ ألف نُكتةٍ بذيئة، بل أيضاً تجديفيَّة، لا تُساعِد على ضمان هلاك المرء بمقدار اكتشافه أنَّ أيَّ شيءٍ تقريباً ممَّا يرغب في القيام به يمكنه أن يقوم به، ليس فقط بمعزلٍ عن عدم رضى رفقائه بل أيضاً بإعجابٍ من قِبَلهم، إذا تسنَّى له فقط أن يدفع إلى معاملة ذلك الشيء باعتباره نُكتةً. وهذه التجربة تكاد كلُّها أن تكون خفيَّةً عن مريضك تحت ستار تلك الجِديَّة الإنكليزيَّة بشأن الدُّعابة أو الفُكاهة. فإيُّ إيحاءٍ بأنَّه قد يكون من هذه الفكاهة ما يزيد على الحدِّ يمكن أن يظهر له باعتباره "تزمُّتاً طهوريّاً" أو أمراً ينمُّ عن "الافتقار إلى حسِّ الدُّعابة".

غير أنَّ الصَّفاقة أو الوقاحة هي أحسنُهنَّ جميعاً. فأوَّلاً، هي اقتصاديَّةٌ للغاية، إذ إنَّ الآدميَّ الذكيَّ وحده يمكن أن يعمل مزحةً عمليَّة ناجحة عن الفضيلة، أو بالحقيقة عن أيِّ شيءٍ آخر؛ فأيُّ واحد من هؤلاء يمكن أن يُدرَّب على أن يتكلَّم كما لو كانت الفضيلة مدعاةً للسخرية. وبين الوَقِحين، يُفترض دائماً أنَّ النُّكتة قد حصلت. فلا أحدَ في الواقع يعملها؛ ولكنَّ كلَّ موضوعٍ جدِّيٍّ تجري مناقشتُه بطريقةٍ توحي بأنَّهم قد وجدوا بالفعل جانباً مُضحِكاً فيها.

وإذا ما استطالت عادةُ الوقاحة، فإنَّها تبني حول المرء أقوى حصون دفاعيَّة أعرفُها في وجه عدوِّنا. ثمَّ إنَّها خاليةٌ تماماً من الأخطار المتأصِّلة في مصادر الضَّحِك الأخرى. فهي بعيدةٌ ألفَ ميل عن الفرَح: إنَّها تقتل الذَّكاء بدل أن تصقله، ولا تبعث أيَّة مودَّة بين أولئك الذين يمارسونها.

عمُّك المُحبُّ
خُربُر

١٢

عزيزي عَلقَم،

من الواضح أنَّك تُحرز تقدُّماً باهراً. إنَّما خشيتي الوحيدة أن تُصحِّيَ المريض إلى الشعور بوضعه الحقيقيّ في معرض سعيك إلى استعجاله. فمن واجبنا، أنا وأنت، إذ نرى الوضع على حقيقته، ألاَّ ننسى البتَّة كيف ينبغي أن يظهر له مختلفاً اختلافاً كلّيّاً. نعرف أنَّنا قد أدخلنا تغييراً في الاتِّجاه على خطِّ سيره الذي أخذ يُطوِّحه ويُخرِجه عن مداره حول عدوِّنا. ولكنْ يجب دفعُه إلى أن يتصوَّر أنَّ جميع الخيارات التي أحدثت هذا التغيير في خطِّ السَّير تافهةٌ ومُمكِنٌ إبطالُها. فيجب ألاَّ نسمح له بأن يشكَّ في أنَّه الآن، مهما كان ببطء، يتوجَّه بعيداً تماماً عن الشمس على خطٍّ سيحمله إلى قلب برودة أقاصي الفضاء وظلمته.

لهذا السبب، يكاد يُبهِجني أن أسمع أنَّه ما زال مُرتاداً للكنيسة ومُتناوِلاً. أعرفُ أنَّ في هذا أخطاراً؛ ولكنَّ أيَّ شيءٍ أفضلُ من أن يُدرِكَ انحراف حياته المسيحية عما كانت عليه في الأشهر الأولى. فما دام يستبقي في الظاهر عاداتِ المسيحيّ، يُمكِنُ بعدُ حملُه على التفكير في نفسه كمن كسب بضعةَ أصدقاءَ جُدد وبضع تسلياتٍ مُستحدَثة إلاَّ أنَّ حالته الروحيَّة لم تتغيَّر تغيُّراً جذريّاً عمَّا كانت عليه قبل ستَّة

أشهُر. وبينما هو يتصوَّر ذلك، لا نُضطرُّ إلى التعامُل مع توبته الصريحة عن خطيَّة محدَّدة يُقِرُّ بها إقراراً تامّاً، بل نتعامل فقط مع شعوره المُبهَم – وإن يكُن مُقلِقاً – بأنَّه لم يكُن يُبلي بلاءً حسناً مؤخَّراً.

إنَّ هذا الانزعاج القاتم يستدعي معالجةً واعية. فإذا قوي فوق الحدّ، فقد يُوقِظه ويُفسِد اللعبة كلَّها. وفي المقابل، إذا أخمدتَه كلِّيّاً (الأمرُ الذي – بالمناسبة – يُرجَّح ألاَّ يدعك العدوُّ تفعله) نخسر عنصراً من عناصر الوضع يمكن استغلاله لمصلحتنا. فإذا سمحنا لمثل هذا الشعور بأن يستمرّ، إنَّما بغير أن نسمح له بأن يصير قوياً بحيث لا يُقاوَم ويؤدي إلى توبةٍ حقيقيَّة، تكون له نزعةٌ لا تُقدَّر بثمن: فهذا الشعور يُضاعِف مقاومة المريض للتفكير في العدوّ. ولدى جميع الآدميِّين، في جميع الأحيان تقريباً، مقدارٌ من مقاومةٍ كهذه. ولكنْ حين يشتمل التفكير في عدوِّنا على مواجهة غمامةٍ غامضةٍ كاملةٍ متزايدة الكثافة من الشعور شبه الواعي بالذنْب، تتضاعف تلك المقاومة عشرة أضعاف. وهكذا يمقت الآدميُّون كلَّ فكرة تُذكِّرهم بالعدوّ، تماماً كما يمقت المتخبِّطون في أزمةٍ ماليَّة مجرَّدَ رؤيةِ دفترِ حسابٍ مصرفيّ. ففي هذه الحالة، لن يُهمِل مريضُك واجباته الدينيَّة، لكن كرهه سيتزايد لَها. إنَّه سيُفكِّر فيها أقلَّ ما يشعر على نحوٍ مقبول بأنَّه يستطيع، وينساها بأسرع ما يمكن عندما يتمِّمها. فقبل بضعة أسابيع، كان عليك أن تُغويَه كي يكون زائفاً ومُهمِلاً في صلواته. أمّا الآن فستجده فاتحاً ذراعيه لك وهو يكاد يتوسَّل إليك توسُّلاً حتَّى تُبدِّد وتشتِّت قصده وتُبلِّد قلبه. سيرغب في أن تكون صلواته زائفة، لأنَّه لن يَرهب من أيِّ شيء مثل رهبتِه من التواصُل الفعّال مع العدوّ. وسيكون هدفه أن يتجنَّب مناقشة المسائل التي قد تُثير المتاعب.

وفيما يغدو هذا الوضع أكثر ترسُّخاً، ستتحرَّر بالتدريج من عملك

الشاقّ في توفير المِتَع كتجارب مغرية. وإذ يُبعِده الانزعاجُ وتردُّده في مواجهة هذا الوضع عن كلّ سعادةٍ أكثر فأكثر، وفيما تجعل العادةُ مِتَع الغرور والإثارة والوقاحة دفعةً واحدةً أقلّ إمتاعاً وأصعب إقلاعاً (لأنّ ذلك ما تفعله العادة بالمتعة من حُسن حظّنا)، سيتبيَّن لك أنّ أيّ شيء أو لا شيء كافٍ لاجتذاب انتباهه المُشتَّت. فلن تعود بحاجةٍ إلى كتاب جيِّد، يُعجِبه حقّاً، كي تمنعه من أن ينصرف إلى صلواته أو نومه، ما دام عمودُ إعلاناتٍ في صحيفة يوم أمس يفي بالغرض. في وسعك أن تجعله يُبدِّد وقته ليس فقط في محادثة يتمتَّع بها مع أشخاصٍ يحبُّهم، بل أيضاً في محادثاتٍ مع أولئك الذين لا يعنيه أمرهم وحولَ موضوعاتٍ تُضجِره. وفي وسعك أن تجعله لا يفعل شيئاً فتراتٍ طويلة. وفي وسعك أن تجعله يسهر حتَّى وقتٍ متأخّر من الليل، لا في القصف أو العربدة، بل مُحدِّقاً إلى نارٍ خامدة في غرفةٍ باردة. أمَّا جميع الأنشطة السليمة والودِّيَّة التي نُريد له أن يتجنَّبها فمن الممكن أن نمنعها بغير أن نُعطيَه أيَّ شيءٍ في المقابل، حتَّى يتسنَّى له على الأقل أن يقول ما قاله أحدُ مرضاي أنا لدى وصوله إلى الأسفل هُهنا: "ها قد أدركتُ الآن أنَّني قضيتُ معظم حياتي عاملاً لا ما كان ينبغي لي عمله ولا ما أحببتُه." إنَّ المسيحيِّين يصفون العدوَّ باعتباره شخصاً "من دونه لا شيءَ قويّ." وليس من شيءٍ قويّاً قوَّةً تكفي لاستلاب أفضل سني الإنسان لا في الخطايا العذبة بل في رفرفة الذهن الكئيب فوق ما لا يعرف حقيقته ولا يدري سببه، أو إشباع دواعي الفضول الواهية جدّاً بحيث لا يتنبَّه إليها المرءُ إلاَّ بعضَ التنبُّه، أو في نقر الأصابع وإضاعة الوقت بانتظارِ لاشيء، أو في تصفير ألحانٍ لا يحبُّها، أو في متاهةِ أحلام اليقظة الطويلة القاتمة الخالية حتَّى من شهوةٍ أو طموحٍ يُضفيان على هذه الأحلام نكهةً مُستساغة، ولكنَّها ما إن تنطلقُ بفعل سلسلة من المُصادَفات والظروف

العرَضية، حتَّى يغدوَ المخلوق أشدَّ ضعفاً وتَشوُّشاً من أن يقوى على التخلُّص منها.

ستقول لي إنَّ هذه خطايا صغيرة جدّاً. ولا شكَّ في أنَّك، كجميع المُجرِّبين المبتدئين، متشوِّقٌ أن تتمكَّن من إخباري بشرورٍ باهرة. إنَّما تذكَّرْ فعلاً أنَّ الأمر الوحيد الذي يهمّ هو المدى الذي إليه تفصل الإنسان عنِ العدوّ. فلا يهمُّ كم تكون الخطايا صغيرة ما دام مجموع تأثيراتِها يضمن إبعاد الإنسان عن النور وإخراجه إلى اللاشيء. وليس القتل أفضل من ورق الشدَّة إذا تيسَّر للورق أن يُنجِز الحيلة ويحقِّق الغاية. ففي الواقع أنَّ أضمن طريقٍ إلى جهنَّم هو الطريق التدريجيُّ: ذلك المُنحدَر اللطيف، الليِّن تحتَ الأقدام، الخالي من المُنعطَفات المُفاجئة، ومن المَعالِم الهادية واللافتات الموجِّهة.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

١٣

عزيزي عَلقَم،

يبدو لي أنَّك تُحبِّر عدداً كبيراً من الصفحات لتحكي قصَّة بسيطة جدّاً. إنَّما خُلاصة القول من ذلك كلِّه أنَّك جعلتَ زبونك ينفلت من بين أصابعك. فالوضع خطيرٌ جدّاً، وأنا لا أرى بالحقيقة سبباً يَضطرُّني لأنْ أُحاول الحيلولة بينك وبين عواقب عدم كفاءتك. إذ إنَّ التوبة وتجديدَ ما يدعوه الطرف الآخر "نعمة" في المستوى الذي تتحدَّث عنه لهو هزيمة من الدرجة الأُولى. فذلك يرقى إلى مستوى اهتداءٍ ثانٍ، وربَّما يكون على صعيدٍ أعمق من الأوَّل.

وكما كان ينبغي لك أن تعلم، فإنَّ السحابة الخانقة التي حالت دون مهاجمتك للمريض، وهو راجع من الطاحونة القديمة سيراً على قدمَيه، هي ظاهرةٌ معروفة جيِّداً. إنَّها سلاح العدوِّ الأفتك والأكثر بربرية، وهي تظهر عموماً حين يكون حاضراً بالنسبة إلى المريض حضوراً مباشراً في أحوالٍ مُعيَّنة غير مُصنَّفة تماماً بعد. وبعض الآدميِّين تحيط بهم تلك السحابةُ على نحو دائم، ولذا يتعذَّر علينا أن ننال منهم.

والآن، إلى أخطائك الفاضحة. فبمبادرةٍ خاصَّة منك، سمحتَ أوَّلاً للمريض بقراءة كتابٍ يستمتع به حقّاً، وذلك لأنَّه مُمتع له وليس

لكي يُبديَ بعض الملاحظات البارعة بشأنه لأصدقائه الجُدد. ثُمَّ إنَّك سمحتَ له بأن يتمشَّى إلى الطاحونة القديمة ويشرب فنجان شاي هناك، في نُزهةٍ وسط ريفٍ يروقه حقّاً، قام بها وحده. بعبارةٍ أُخرى، سمحتَ له بمتعتين بسيطتين حقيقيَّتين. أكنتَ جاهلاً هكذا حتَّى لم ترَ الخطر الكامن في ذلك؟ إنَّ الآلام والمتَع تتميَّز بأنَّها حقيقيَّة على نحوٍ جليّ، ومن ثَمَّ فبمقدار ما تبلغه هذه الأيام تزوِّد الإنسان الذي يشعر بها بمِحَكٍّ للحقيقة. وعليه، فإذا كنتَ قد دأبتَ في محاولة إهلاك زبونك بالأُسلوب الرومنطيقيّ (بجعله شخصاً أشبه بتشايلد هارولد أو ڤرتر غائصاً في رثاء الذات بسبب ضيقاتٍ وهميَّة) يجدر بك أن تحاول حمايته بأيّ ثمن من أيّ ألم حقيقيّ. وذلك لأنَّ خمس دقائق من وجع الأسنان الفعليّ لا بدَّ أن تفضح الأحزان الرومنطيقيَّة باعتبارها من الأمور التافهة وتكشف خُدعتك بكاملها. غير أنَّك كنتَ تسعى لإهلاك مريضك بواسطة ما في الدُّنيا، وذلك بأن تقدِّم له الباطل والعربدة والسخرية والملَل الباهظ باعتبارها مِتَعاً. تُرى، كيف يُعقَل أنَّك أخفقت في أن تدرك أنَّ المتعة الحقيقيَّة هي آخر شيء ينبغي لك أن تدعه يلاقيه؟ ألم تَعِ مُسبَّقاً أنَّها لا بدَّ أن تقتل (بالمفارقة) جميع التفاهات التي طالما بذلتَ جهداً مُضنياً في تعليمه أن يُقدِّرها؟ وأنَّ نوعيَّة المتعة التي آتاه إيّاها الكتابُ والنُّزهة كانت أخطرَ الكلّ؟ وأنَّ من شأن تلك المتعة أن تسلخَ عن وعيه تلك القشرة القاسية التي طالما دأبتَ في تكوينها فوقه، وأن تجعله يشعر بأنَّه عائدٌ إلى بيته ومُستعيدٌ لنفسه؟ فكخطوةٍ تمهيديَّة لفصل زبونك عن العدوّ، أردتَ أن تفصله عن نفسه، وقد أحرزتَ بعض النجاح في ذلك. أمّا الآن، فذلك كلُّه باطل.

إنَّني أعرف بالطبع أنَّ العدوَّ أيضاً يُريد أن يفصل البشر عن نفوسهم، ولكنْ بطريقة مختلفة. تذكَّر دائماً أنَّه حقّاً يحبُّ أولئك "الجراثيم

الصغار، وأنَّه يُضفي قيمة غير معقولة على تميُّز كلِّ واحدٍ منهم. وعندما يتحدَّث عن خسارتهم لنفوسهم، فإنَّما يعني التخلِّيَ عن صخب التشبُّث بالرأي والإرادة الذَّاتيين. وما أن يتمَّ لهم ذلك، حتَّى يردَّ لهم بالحقيقة كامل شخصيَّاتهم، ويفتخر (وأخشى أن افتخاره صادقاً) بأنَّهم حين يكونون له بالكلِّيَّة يكونون أنفسَهم وعلى حقيقتهم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وعليه، فبينما يسرُّه أن يراهم يُضحُّون حتَّى بإراداتهم البريئة في سبيل إرادته، يمقت أن يراهم مُنجرِفين بعيداً عن طبيعتهم بالذات لأيِّ سببٍ آخر. وينبغي لنا أن نُشجِّعهم على القيام بذلك. فإنَّ أعمق الميول والحوافز لدي أيِّ إنسان هي المادَّةُ الخام – أو نقطة الانطلاق – التي زوَّدهما العدوُّ بها. من هنا كان إبعاده عن هذه المادَّةُ الخام مكسباً كلّ حين. حتَّى في الأُمور التي لا تُقدِّم ولا تؤخِّر، يُستحسن دائماً أن نأتي بمقاييسِ العالم، أو التقاليد، أو الأزياء بدل الميول والمكاره الحقيقية لدى الآدميِّ. ومن شأني أنا أن أصل بهذا إلى أبعد حدوده. فإنَّ القاعدة عندي هي أن أستأصل من مريضي أيَّ ذوقٍ شخصيٍّ قويّ ليس خطيَّةً بالفعل، حتَّى لو كان شيئاً تافهاً تماماً كالتعلُّق بلعبة الكريكيت الريفيَّة، أو جمع الطوابع، أو شرب الكاكاو. ولئن سلَّمتُ لك جدلاً بأنَّ مثل هذه الأمور لا تنطوي في ذاتها على أيِّ شيء من الفضيلة، لكن يتَّصل بها نوعٌ من البراءة والاتِّضاع ونسيان الذات أرتاب فيه. فالإنسان الذي يستمتع في صدقٍ ونزاهة بأيِّ أمرٍ من أُمور هذا العالَم، لأجل ذلك الأمر بحدِّ ذاته، ولا يهمُّه في شيءٍ ما يقوله الآخرون بشأنه، هو بفضل هذه الحقيقة عينها مستعدٌّ لمواجهة بعضٍ من أدهى سُبُل هجومنا. لذا ينبغي لك أن تحاول دائماً حمل المريض على التخلِّي عمَّا يحبُّه حقّاً من أناسٍ أو أطعمة أو كتب، لمصلحة "أفضل" الناس، والطعام "المناسب"، والكتب "المهمَّة". فلقد عرفتُ آدميّاً حماه من التجارب

القويَّة بالطموح الاجتماعيّ ميلُه الأقوى للكروش المحشوَّة والبَصَل!
يتبقَّى لنا أن نُفكِّر في الكيفيَّة التي بها نتمكَّن من درء هذه الكارثة. فالأمر الرائع هو أن نحول دون قيام الزبون بأيِّ شيء. وما دام لا يحوِّل زبوننا هذه التوبة الجديدة إلى فعلٍ حقيقيّ، فلا يهمُّ مقدارُ تفكيره فيها. فليتعثَّرْ ويتخبَّطْ فيها هذا الوحشُ الصغير! وإن كان لديه أيُّ ميلٍ في ذلك الاتِّجاه، فدعه يكتب كتاباً عن هذا الموضوع. إذ يغلب أن تكون هذه طريقةً ممتازة لتعقيم البذور التي يزرعها العدوُّ في النفس البشريَّة. فليفعلْ أيَّ شيء ما عدا الفعل! لن يكون أيُّ مقدار من التقوى في خياله وعواطفه مؤذياً لنا ما دمنا نقدر أن نُبقيَه خارجَ إرادته. وكما قال أحدُ الآدميِّين، فإنَّ العادات الناشطة يُقوِّيها التكرار، أمَّا العادات الخاملة فلا بدَّ أن تضعف. فكلَّما غلب لديه الشعور دون التصرُّف، قلَّت قدرته على أن يتصرَّف، وقلَّت أيضاً قدرته في خاتمة المطاف على أن يشعر.

عمُّكَ المُحبُّ
خُربُر

١٤

عزيزي عَلقَم،

إنَّ الأمر الأكثر إنذاراً بالخطر في تقريرك الأخير عن المريض هو أنَّه لا يقوم بأيٍّ من تلك التصاميم الجريئة التي تميَّز بها اهتداؤه الأصليّ. فلا مزيدَ من الوعود السخيَّة بالتزام الفضيلة كلَّ حين، على حدِّ ما استنتجتُ. ولا يُبدي حتَّى توقُّعاً أن يُمنَح "نعمة" تكفيه مدى الحياة. إلاَّ أنَّ لديه رجاءً بحصَّة ضئيلة لكلِّ يوم وكلِّ ساعة كي يواجه التجربة كلَّ يوم وكلَّ ساعة! فهذا سيِّئٌ جدّاً.

لا أرى سوى أمرٍ واحد يمكن القيام به حاليّاً. لقد أصبح مريضك متواضعاً. فهل لفتَّ انتباهه إلى الواقع؟ ذلك أنَّ جميع الفضائل تغدو أقلَّ هولاً بالنسبة إلينا حالما يتنبَّه الإنسانُ إلى حيازته لها، ولكنَّ هذا الأمر يصحُّ على الخصوص في ما يتعلَّق بالتواضع. فأمسِك به لحظة يكون مسكيناً بالروح حقّاً وهرِّب إلى داخل ذهنه هذه الفكرة المُشبِعة: "يا لَلعجب! إنَّني مُتواضِعٌ فعلاً!" وفي الحال تقريباً تظهر لديه الكبرياء: الفخر والكبرياءُ بشأن تواضُعِه بالذات. وإن تنبَّه إلى الخطر وحاول أن يخنق هذا النوع الجديد من الكبرياء، فاجعله يفتخر ويتكبَّر بشأن محاولته، وهكذا دواليك عبرَ أيِّ عدد من المراحل تشاؤه. إنَّما لا تُجرِّب

هذا مدَّةً أطول من اللازم، لئلاَّ توقِظ حسَّ الدُعابة والتناسُب لديه، فيكفي إذ ذاك بأن يضحك عليك ويُخلِد إلى النوم.

غير أنَّ ثمَّة طُرقاً أُخرى نافعة لتركيز انتباهه على فضيلة التواضع. فبهذه الفضيلة، كما بجميع الفضائل الأُخرى، يبتغي عدوُّنا أن يُحوِّل انتباه الإنسان بعيداً عن ذاته إليه هو، وإلى إخوان الإنسان. إذ إنَّ كل تذلُّلٍ وكُرهٍ للذات يُوجَّهان في خاتمة المطاف إلى هذه الغاية عينها. وما لَم يبلغا هذه الغاية، لا يؤذياننا إلاَّ قليلاً. بل إنَّهما قد ينفعاننا إذا أبقيا الإنسان منشغلاً بذاته، ولا سيَّما إذا تيسَّر تحويل احتقار النفس نقطةَ انطلاقٍ إلى احتقار النفوس الأُخرى، وتالياً إلى التشاؤم والكآبة والقساوة.

فعليك إذاً أن تُخفي عن المريض غايةَ التواضع الحقيقيَّة. فليُفكِّرْ فيه لا كإنكار للذات، بل كنوعٍ معيَّن من الرأي (رأي وضيع، بالتحديد) في قُدراته وخُلقه. وأستنتج أنَّ لديه بعض القُدرات حقاً. فرسِّخ في ذهنه فكرة كون التواضع يكمن في أن يحاول حسبان تلك القدرات أقلَّ قيمةً ممَّا يعتقد فعلاً. لا شكَّ أنَّها في الواقع أقلُّ قيمةً ممَّا يحسبها، ولكنْ ليس هذا بيتَ القصيد. إنَّما الأمر الرائع أن تجعله يُقدِّر رأياً لا تِّصافِهِ بمزيَّةٍ أُخرى غير الصدق، مُدخِلاً بذلك عنصراً من الخداع والتزييف في لبِّ ما يُنذِر – في الأحوال الأُخرى – بأنَّه سيصير فضيلة. بهذا الأُسلوب تمَّ حمل آلاف الآدميِّين على التفكير بأنَّ التواضعِ يعني أن تحاولَ النساءُ الجميلات حسبانَ أنفسهنَّ قبيحات، ويحاولَ الرجال الأذكياء حسبان أنفسهم أغبياء. وبما أنَّ ما يحاولون حسبانه قد يكون، في بعض الحالات، حماقةً سافرة، فلا يمكنهم أن ينجحوا في حسبانه، وتُتاح لنا فرصة إبقائهم دائرين حول أنفُسهم في مسعىً لتحقيق المستحيل. ولكي نَستبِق استراتيجيَّة العدوّ، يجب أن نُفكِّر مليّاً في أهدافه. فالعدوُّ يريد أن

يوصل الإنسان إلى حالةٍ ذهنيَّة يستطيع فيها أن يضع تصميماً لأفضل كاتدرائيَّة في العالم، ويعلم أنَّها الفُضلى، ويبتهج بهذه الحقيقة، بغير أن يكون البتَّة أكثرَ (أو أقلَّ) سروراً (أو غير مسرور) بكونه قد فعل ذلك ممَّا لو كان شخصٌ آخر قد قام به. ثمَّ إنَّ العدوَّ يريد للإنسان، في الأخير، أن يكون متحرِّراً تماماً من أيِّ انحياز إلى مصلحته الشخصيَّة بحيث يستطيع أن يبتهج بقدراته الخاصَّة بمثل الصراحة والامتنان اللذين بهما يبتهج بقُدرات أخيه الإنسان... أو بشروق شمس، أو بفيل، أو بشلاَّل. إنَّه يُريد لكلِّ إنسان، في خاتمة المطاف، أن يكون قادراً على تمييز كلِّ مخلوق (حتَّى نفسه) باعتباره أمراً مجيداً وعجيباً. يُريد أن يقتل لدى الجميع حبَّهم الحيوانيَّ للذات بأسرع ما يمكن. غير أنَّ سياسته البعيدة المدى، كما أخشى، هي أن يردَّ إليهم نوعاً جديداً من حبِّ الذات: حبّاً عطوفاً وتقديراً شكوراً لجميع النفوس، بما فيها أنفسُهم هم. فعندما يكونون قد تعلَّموا بالحقيقة محبَّة إخوانهم كأنفُسهم، يُتاح لهم أن يُحِبُّوا أنفُسَهم كإخوانهم. فعلينا ألاَّ ننسى أبداً ما هي اللَّمحة الأكثر تنفيراً والأعصى تفسيراً بين ملامح عدوِّنا، ألا وهي أنَّه يحبُّ حقّاً المخلوقات الجرداء ذات القدمين، تلك التي خلقها، وأنَّه دائماً يُعيد إليها بيمُناه ما سبق أن أخذه منها بيُسراه.

وعليه، فإنَّ كامل جهده سينصبُّ على صرف ذهن الإنسان عن موضوع قيمته الذاتيَّة برُمَّته. فهو يُفضِّل أن يحسب المرء نفسه مهندساً عظيماً أو شاعراً مُجيداً، ثُمَّ ينسى الأمر، على أن يقضيَ كثيراً من الوقت ويتكلَّف كثيراً من المشقَّة كي يحسب نفسه مهندساً رديئاً أو شاعراً سيِّئاً. وسوف يواجه العدوُّ مساعيَك الهادفة إلى بثِّ العُجب أو الاعتدال الزائف في المريض بالتذكير الواضح بأنَّ الإنسان ليس مدعوّاً عادةً لحيازة أيِّ رأيٍ في قُدراته الخاصَّة، ما دام في وسعه أن يمضيَ

في تحسينها خيرَ تحسين ليبلغ بها أقصى إمكاناته بغير أن يُقرِّر مكانته الخاصَّة المحدَّدة في قاعة المشاهير. فعليك أن تحاول إقصاء ذلك التذكير عن وعي المريض مهما كان الثمن. وسوف يسعى العدوُّ أيضاً لأن يُرسِّخ في ذهن المريض حقيقةَ عقيدةٍ يعترف بها المسيحيُّون كلُّهم، ولكنَّهم يستصعبون إقناع مشاعرهم بها، ألا وهي اعتقادهم أنَّهم لم يَخلقوا هم أنفُسَهم، وأنَّ قُدراتِهم وُهِبت لهم. ومن ثمَّ يجوز لهم أن يفتخروا بها إذا جاز لهم الافتخار بلون شعرهم. ولكنَّ هدف العدوِّ، كلَّ حين وبمختلف الأساليب، سيكون حجب مسائل كهذه عن ذهن المريض، في حين أنَّ هدفك سيكون جعْلها ماثلةً ثابتةً في ذهنه.[1] حتَّى خطاياه لا يريد العدوُّ له أن يُفكِّر فيها فوق الحدّ. وحالَما يتوب الإنسان عنها، فكلَّما أسرع في تحويل انتباهه نحو الخارج كان سرورُ العدوِّ أوفر وأكبر.

عمُّك المُحِبُّ
خُر بُر

١ يسعى الشيطان لإبقاء فكرنا مشغولاً بما لدينا من قدرات وجمال ومواهب لنفتخر بها ونتكبَّر، إذ يلفت نظرنا إلى هذه الأمور دون أن يذكِّرنا بأصلها ومصدرها، الذي هو الله.

عزيزي عَلقَم،

لقد لاحظتُ بالطبع أنَّ الآدميِّين كانوا يجتازون حالة خمود في حربهم الأوروبيَّة - في ما يدعونه بسذاجةٍ "الحرب"! - ولا يُفاجئني أنَّ حالات القلق عند المريض تشهد خموداً مُماثِلاً. أفينبغي لنا أن نُبقيَه قلِقاً؟ إنَّ الخوف غير المُبرَّر والثقة البلهاء كلاهما من الحالات الذهنيَّة المرغوب فيها. واختيارنا بينهما يُثير أسئلةً هامَّة.

إنَّ الآدميِّين يعيشون في الزمان، ولكنَّ عدوَّنا يقصد لهم أن يحيَوا في والأبديَّة. ولذلك يُريد لهم، كما أعتقد، أن يُعنَوا بشكلٍ رئيسي بأمرَين: الأبديَّةِ نفسِها، ونقطةِ الزمان التي يدعونها الحاضر. لأنَّ الحاضر هو النقطة التي فيها يُلامِس الزمان الأبديَّة. ففي ما يتعلَّق باللحظة الحاضرة، وبها وحدها، يحوزُ الآدميُّون خبرةً مُشابهةً للخبرة التي لدى عدوِّنا بالنسبة إلى الحقيقة ككُلّ، ففي الحاضر تُقدَّم لهم الحرية والواقع. ولذلك يريد لهم أن يظلُّوا مَعنيِّين على نحوٍ مستمرّ إمَّا بالأبديَّة (الأمرُ الذي يعني أن يكونوا مَعنيِّين ومهتمين به هو)، وإمَّا بالحاضر... إمَّا مُفكِّرين في اتِّحادهم الأبديّ به، أو انفصالهم الأبديّ عنه، وإمَّا طائعين صوت الضمير في الحاضر حاملين الصليب الحاضر، ومتقبِّلين النعمة

الحاضرة، ومقدِّمين الشُكر على البهجةَ الحاضرة.

فشغلُنا هو أن نُبعِدهم عنِ الأبديِّ، وعنِ الحاليّ. نظراً لهذا، نُجرِّب الآدميَّ (مثلاً أرملةً أو عالِماً) بعضَ الأحيان بأن يعيش في الماضي. ولكنَّ لهذا قيمةً محدودة، لأنَّ لدى الآدميِّين نوعاً من المعرفة الحقيقيَّة للماضي، ولأنَّ للماضي طبيعةً محدَّدة ونهائيَّة، وهو من هذه الناحية يشابه الأبديَّة. فأفضلُ بكثيرٍ أن نجعلهم يعيشون في المستقبل. إذ إنَّ الضرورة البيولوجيَّة تجعل جميع عواطفهم الشديدة تتوجَّه فعلاً في ذلك الاتِّجاه، بحيثُ يُضرِم فيهم التفكيرُ في المستقبل الرجاءَ والخوف. ثمَّ إنَّ المستقبل مجهولٌ عندهم، حتَّى إنَّنا إذ نجعلهم يُفكِّرون فيه نجعلهم يُفكِّرون في أُمور غير حقيقيَّة. وبالاختصار، فإنَّ المُستقبل، من بين جميع الأشياء، هو الأمر الأقلُّ شبهاً بالأبديَّة. إنَّه أكثر أجزاء الزمان مؤقَّتيَّةً: لأنَّ الماضي مُجمَّد ولم يعُد يجري، والحاضرَ تُنيرُه الأشعَّةُ الأبديَّة. من هنا يأتي التشجيعُ الذي خصَصنا به جميع تلك النُّظُم الفكريَّة التي تُشابه التطوُّر الخلّاق، أو الفلسفة الإنسانيَّة العلميَّة، أو الشيوعيَّة، والتي تُركِّز عواطف البشر على المستقبل، على لبِّ المؤقَّتية والزواليَّة. لذا كانت جميع الرذائل تقريباً مُتجذِّرةً في المستقبل. فعرفان الجميل ينظر إلى الماضي، والمحبَّة إلى الحاضر. أمَّا الخوف والجَشَع والشهوة والطموح فتنظر إلى الأمام. ولا تحسبِ الشهوةَ استثناءً. فعندما تصل المتعة الحاضرة، تكون الخطيَّة (وهي وحدها تهمُّنا) قد صارت أمراً قد حدث. وما المتعة إلاَّ جزءُ العمليَّة الذي نندم عليه، وكان من شأننا أن نستبعده لو تسنَّى لنا ذلك بغير أن نخسر الخطيَّة. إنَّه الجزءُ الذي يُسهِم به العدوّ، ومن ثَمَّ يتمُّ اختبارُه في وقتٍ حاضر. أمَّا الخطيَّة، وهي الجزءُ الذي نُسهِم به نحن، فمُتوقَّع حصولُها في ما يأتي من الزمان.

من غير ريبٍ أنَّ العدوَّ يريد من البشر أن يُفكِّروا في المستقبل، تماماً

بمقدارِ ما هو ضروريٌّ للتخطيط اليومَ لأفعال الإنصاف أو الأحسان التي ستكون من واجباتهم غداً. فإنَّ واجب التخطيط لعمل الغد هو واجب اليوم. ولئن كانت مادَّة هذا الواجب مستمدَّةً من المستقبل، فإنَّه – شأنه شأنُ جميع الواجبات – حاصلٌ في الحاضر. إنَّما هذه المسألة حسَّاسةٌ جدّاً الآن. فإنَّ عدوَّنا لا يُريد من البشر أن يُعطوا المستقبل قلوبهم، أن يضعوا كنوزهم فيه. أمَّا نحن فنُريد ذلك. والنموذجُ عنده إنسانٌ يعمل النهارَ كلَّه لمصلحة الأجيال الآتية (إن كانت تلك موهبته ودعوته)، ثمَّ يغسل ذهنه من الموضوع بكامله، ويضع الأمر في عُهدة السماء، ويعود في الحال إلى الصَّبر أو عِرفان الجميل الذي تتطلَّبه اللحظة التي يجتاز فيها. أمَّا نحن فنريد للإنسان أن يُنهِكه المستقبل – إذ تنتابُه رؤى سماءٍ وشيكةٍ أو جهنمٍ وشيكةٍ على الأرض – فيكون على استعدادٍ لمخالفة وصايا العدوِّ في الحاضر، إذا تيسَّر لنا من جرّاء قيامه بذلك أن نجعله يتصوَّر أنَّه يستطيع بلوغ الواحدة وتجنُّب الأُخرى،[1] معتمداً في سبيل إيمانه على النجاح أو الفشل الذي سيكون لمشاريعه التي لن يعيش حتَّى يرى نهايتها. إنَّنا نريد جنساً بشريّاً بكامله يُطارِد السَّرابَ كلَّ حين، غيرَ صادقٍ البتَّة ولا لطيفاً، ولا سعيداً الآن، لكنْ مستخدِماً على نحوٍ دائم كلَّ موهبة حقيقية يُعطاها في الحاضر مُجرَّدَ حطبِ وَقودٍ به يُثقِل مذبح المستقبل.

إذاً يترتَّب على ذلك بوجهٍ عامّ، والأُمورُ الأُخرى سواءٌ، أنَّه أفضلُ لمريضك أن يمتلئ بالقلق أو الرجاء (لا يهمُّ بأيِّهما) تجاهَ هذه الحرب من أن يكون عائشاً في الحاضر. غير أن التعبير "عائشاً في الحاضر" مُبهَم. فقد يصف عمليَّةً تختص وتُعنى بالمستقبل حقّاً بمقدار اختصاص القلق ذاته به. وربَّما يكون زَبونُك غير مضطرب من جهة المستقبل، ليس لأنَّه

١ أي بلوغ السماء وتجنب جهنّم في المستقبل الزمني

مَعنيٌّ بالحاضر، بل لأنَّه قد أقنع نفسه بأنَّ المستقبل سيكون مؤاتياً. وما دام ذلك هو السببَ الحقيقيَّ لهدوئه، فإنَّ هدوءَه سينفعنا، لأنَّه إنَّما يُكدِّس مزيداً من الخيبة أو الإحباط، ومن ثَمَّ مزيداً من نفاد الصَّبر، عندما تتبدَّد آماله الزائفة. وفي المقابل، إذا كان واعياً أنَّ الأهوال قد تكون متربِّصةً به، وكان يُصلّي لأجل الفضائل التي بها يُواجِه هذه الأهوال، شاغلاً نفسه في تلك الأثناء بالحاضر لأنَّه فيه — وفيه وحده — يكمن كلُّ واجب وكلُّ نعمة وكلُّ معرفة وكلُّ متعة، فإنَّ حالته غيرُ مرغوبٍ فيها تماماً وينبغي لنا أن نُهاجِمه في الحال. ههُنا أيضاً قد نفعَنا سلاحُنا الفيلولوجيُّ[2] نفعاً جزيلاً. فجرِّبْ كلمة "الرِّضى" معه. ولكنْ يُرجَّح جدّاً بالطبع أنَّه "عائشٌ في الحاضر" ليس من أجل أيِّ سببٍ من هذه الأسباب،[3] بل لمجرَّد كون صحَّته جيِّدة وكونه يستمتع بعمله. إذ ذاك تكون الظاهرة طبيعيَّةً فحسْب. وعلى الرُّغم من ذلك، فمن شأني أن أضع حدّاً لها لو كنتُ في مكانك. فليس من ظاهرةٍ طبيعيَّة لمصلحتنا حقّاً. وعلى كلِّ حال، لماذا ينبغي للمخلوق أن يكون سعيداً؟

عمُّك المُحِبّ
خُربُر

٢ الفيلولوجيا: علم اللغة.

٣ يقصد الأسباب التي ذكرها سابقاً، مثل كون المرء يستطيع القيام بالواجبات والتمتع بالنعم والمعرفة في الحاضر.

[٢٦]

عزيزي عَلقَم،

ذكرتَ عَرَضاً في رسالتك الأخيرة أنَّ المريض قد واظب على حضور اجتماعاتِ كنيسةٍ واحدة دون غيرها منذُ اهتدائه، وأنَّه غير مسرورٍ كثيراً بها. فهل لي أن أسألك: ماذا تنوي أن تفعل؟ لماذا لم تزوِّدني بأيِّ تقرير عن أسباب ولائه لكنيسة الأبرشيَّة؟ هل تعي أنَّ ولاءه سيِّئٌ جدّاً، إلاَّ إذا كان ناجماً عن اللامُبالاة؟ يقيناً أنَّك تعلم أنَّه إذا تعذَّر شفاء الإنسان منِ ارتياد الكنيسة فتالي أمرٍ أفضل هو أن تُرسِله إلى أنحاء الجوار كلِّها للبحث عن الكنيسة التي "تُناسِبه" حتَّى يصير ذوَّاقةً أو خبيراً بالكنائس.

أمَّا الأسباب فبديهيَّة. وأوَّلُها أنَّ المؤسَّسة الأبرشيَّة يجب أن تُهاجَم دائماً، فلكونُها وحدةَ مكانٍ، لا وحدةَ أذواق، تستقطب أُناساً من مختلف الفئات والنفسيَّات وتجمعهم معاً في وحدةٍ من النوع الذي يشتهيه عدوُّنا. ثُمَّ إنَّ المبدأ الجماعيَّ، منِ الناحية الأُخرى، يُحوِّل كلَّ كنيسة إلى شبهِ نادٍ، وأخيراً – إذا سار كلُّ شيءٍ كما يُرام – إلى عصبةٍ أو حزب. ثانياً، من شأن البحث عن كنيسة "مناسِبة" أن يجعل المرء ناقداً، مع أن العدوَّ يريد له أن يكون تلميذاً. فما يريده من العامِّيِّ

في الكنيسة هو موقفٌ يمكن بالفعل أن يكون نقديّاً، بمعنى رفْض ما هو زائف أو مُعوِّق، لكنْ غيرَ نقديٍّ تماماً بمعنى أنَّه لا يُثمِّن، أي أنه لا يضيِّع أيَّ وقتٍ في التفكير بشأن ما يرفضه، وإنَّما يكشف ذاته بصراحةٍ في تقبُّلٍ مُتَّضِعٍ خالٍ من التعليق لأيَّة تغذيةٍ حاصلة. (ألستَ ترى إلى أيِّ مدىً عدوُّنا فَظٌّ على نحوٍ مُذِلٍّ وغير روحانيّ ومُتعذِّرِ الإصلاح؟!). فهذا الموقف، ولا سيَّما في أثناء المواعظ، يُوجِد الظرف (الأكثَر عداءً لكامل سياستنا) الذي فيه يمكن أن تصير الأُمور المبتذلة مرغوباً في سماعها من قِبَلِ النفس البشريَّة. وليس من موعظةٍ تقريباً، ولا من كتاب، يمكن ألاَّ يُشكِّلا خطراً علينا إذا تقبَّلهما المرء بهذا المزاج. لذا أرجو أن تشحذ همَّتك وتبعث هذا الغبيَّ في جولةٍ على الكنائس المجاورة، في أسرع وقتٍ ممكن. إنَّ سِجلَّك حتَّى هذا التاريخ لم يُزوِّدنا بكثيرٍ من الرضى.

أمّا أقربَ كنيستين إليه فقد راجعتُ وضعهما في المكتب. وتبيَّن أنَّ لكلٍّ منهما بعضَ المزايا. ففي أُولاهما، القِسِّيسُ رجلٌ ما برح مَعنيّاً منذ عهدٍ بعيد بتلطيف الإيمان لتسهيله على جمهورٍ يُفترَض أنَّه شكَّاك ومُعانِد، حتَّى بات هو الآن مَن يصعق شعب أبرشيَّتِهِ بعدم إيمانه، وليس العكس بالعكس. وقد قوَّض مسيحيَّة نفوسٍ كثيرة. ثمَّ إنَّ إجراءه للخدمات محطُّ إعجابنا أيضاً. فلِكَي يوفِّر على العامَّة كلَّ "صعوبة" تخلَّى عن قراءة المزامير التي يشتمل عليها كتابُ الصلاة وعن تلك المُحدَّدة أيضاً، وهو الآن – بغير أن يدري – يدور بلا انقطاع حول طاحونة مزاميره الخمسة عشر المُفضَّلة وفصول الكتاب المقدَّس العِشرين المُفضَّلة لديه. وعليه، فنحن في مأمنٍ مِنَ الخطر المتمثِّل بأن يصل إليه وإلى رعيَّته أيُّ حقٍّ غير معروفٍ عندهم، وذلك من خلال قراءة الكتاب المقدَّس. ولكنْ ربَّما كان مريضك غيرَ غبيٍّ كفايةً بحيث تروقه هذه الكنيسة، حتَّى الآن على الأقلّ!

وفي الكنيسة الأُخرى عندنا الأخُ شُوَيك. وغالباً ما يتحيَّر الآدميُّون في فهم تشكيلة آرائه: لماذا يكاد يوماً أن يكون شيوعيًّا، وفي اليوم التالي غيرَ بعيد عن نوعٍ من الفاشيَّة الثيوقراطيَّة؛ ويوماً يكون سُكولاستيًّا، وفي اليوم التالي مُستعدّاً لإنكار العقل البشريِّ بجملته؛ ويوماً يكون منغمساً في السياسة، وفي غده معلناً أنَّ جميع دُوَل هذا العالم واقعة على السواء "تحت الدينونة"؟ ونحن طبعاً نعرف الحلقة الرابطة، ألا وهي البُغض. فالرجل لا يقوى على إلزام نفسه أن يعظ بأيِّ شيء لا يُقصَد منه أن يصعق والِدَيه وأصدقاءهما أو يُحزِنهم أو يُربِكهم أو يُذِلَّهم. والعظة التي يمكن أن يتقبَّلها أمثالُ هؤلاء تكون في نظره تافهةً كقصيدةٍ يمكن أن يُقطِّعوها. ثمَّ إنَّ فيه مسحةً من الخداع واعِدةً. فنحن نُعلِّمه أنْ يقول: "إنَّ تعليم الكنيسة هو ..." في حين أنه يعني بالحقيقة: "أكاد أكون واثقاً بأنَّني قرأتُ منذ عهدٍ قريب في كتابات ماريتاين أو أحدٍ من هذا القبيل أنَّ ..." ولكنْ يجب أن أُنذِرك بأنَّ لديه عيباً مُهلِكاً، ألا وهو أنَّه يؤمن حقّاً. وربَّما يُفسِد هذا كلَّ شيء بَعد.

ولكنَّ لدى كِلتا هاتين الكنيستين نُقطةً جيِّدة مشتركة: أنَّهما كنيستا أحزاب. وأظنُّ أنَّني نبَّهتُك قبلاً أنَّه إذا تعذَّر إبقاء مريضك بعيداً عن الكنيسة ينبغي على الأقلِّ أن يلتصق بحزبٍ مّا في داخلها التصاقاً شديداً. لستُ أعني التحزُّب في ما يتعلَّق بالقضايا العقائديَّة حقّاً؛ فبشأنِ هذه المسائل، كلَّما ازداد فتوراً كان أفضل. وليست العقائد هي ما نعتمد عليه جوهريّاً لإنتاج الخُبث. فتسليتنا الحقيقيَّة أن نُفاقِم البغض بين أولئك الذين يقولون "القُدّاس" وأولئك الذين يقولون "الشركة المقدَّسة" حين لا يستطيع أفرادُ كِلا الحزبَين، على وجه الاحتمال، أن يحدِّدوا الفرق مثلاً بين عقيدتَي هوكر وتوما الأكوينيِّ بأيِّ شكل معقول مدَّة خمس دقائق. ثمَّ إنَّ جميع الأشياء غير الهامَّة

تماماً – كالشموع والثياب وما شابه – هي أرضيَّة ممتازة لأنشطتنا. فقد أزلنا إلى أبعد حدٍّ من عقول الناس ما قاله بولُس، ذلك الرجُل الخَطِر، في معرض تعليمه عن الأطعمة وسواها من الأمور غير الجوهريَّة، تحديداً أنَّ البشريَّ العديم الوسَاوس ينبغي دائماً أن يستسلم للبشريِّ ذي الوساوس. ولعلّك تحسب أنَّه لا يمكن أن يُخفِقوا في استيعاب التطبيق. فمن شأنك أن تتوقَّع رؤية المتردِّد "الوضيع" على ركبتيه ويرسم إشارة الصليب على صدره لئلاً يتأثَّر الضميرُ الضعيفُ لدى أخيه "الرفيع" فيجنح إلى عدم التوقير، في حين يمتنع "الرفيع" عن مُمارسات من هذا النوع لئلاّ يُضلِّل أخاه "الوضيع" إلى الوثنيَّة. وكان من شأن الأمور أن تكون على هذا المنوال[1] لولا عملُنا الدائم. فبغير عملنا كان ممكناً أن يصير اختلاف الأعراف داخل كنيسة إنكلترا مرتعاً خصباً للمحبَّة المعطاء والتواضع الأصيل.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

١ يسعى الشيطان إلى جعل الرفيع يتجاهل مشاعر الوضيع البسيط، والبسيط مشاعر الرفيع. لكن الرسول بولس حث في رومية ١٤ على الاستعداد للتنازُل في ما يتعلق بالأمور غير الأساسية، وفي ذلك بناءٌ متبادَل للقوي والضعيف، الرفيع والبسيط.

١٧

عزيزي عَلقَم،

إنَّ الطريقة الراشحة بالازدراء في حديثك عن النَّهَم كوسيلة لاقتناص النفوس، في رسالتك الأخيرة، لا تنمُّ إلاَّ عن جهلك. لقد تمثَّل أحد الإنجازات الباهرة على مدى المئة سنة الأخيرة في تبليد الضمير الآدميّ بشأن ذلك الموضوع، حتّى إنَّك الآن لا تكاد تجد عظةً واحدة تُلقى فيه، أو ضميراً واحداً يقلق بشأنه، في طول أُوروپا وعرضها. وقد كان هذا بمعظمه ناجماً عن صبِّنا كلَّ مجهوداتنا على نَهَم الطعام المُترَف، لا نَهَم الإفراط. ووالدةُ مريضك مَثَلٌ جيِّد على هذا، كما علمتُ من الملفّ وكما يُحتمَل أن يكون غُلبوص قد قال لك. فمن شأنها أن تُذهَل — وأرجو أنَّها ذات يوم ستُذهَل فعلاً — إذ تعلم أنَّ حياتها كلَّها كانت أسيرةً لهذا النَّوع من المتعة الحسِّيَّة، الأمرُ الذي يَخفى عليها من جرَّاء كون الكَمّيّات المستخدمة ضئيلةً حقّاً. ولكنْ ماذا تؤخِّر الكمّيّات أو تُقدِّم ما دُمنا قادرين على استعمال معدة الإنسان وفمه لإحداث التشكّي ونفاد الصَّبر والقساوة والانشغال بالذات؟ إنَّ قبضة غُلبوص متمكِّنة تماماً من هذه العجوز. فهي رُعبٌ مؤكَّد للممرِّضات والخَدَم. ذلك أنَّها تعاف دائماً ما يُقدَّم لها لتقول بتنهُّدٍ بسيطة مُتحاشِمة وقورة

وابتسامة: "آه، رجاءً، رجاءً ... كلُّ ما أُريده هو فنجانُ شاي، خفيف إنّما ليس كثيراً، وكِسرةُ خُبزٍ محمَّص صغيرة جدّاً جدّاً وهشَّة." هل فهمتَ هذا؟ لأنَّ ما تريده أصغر وأرخص مِمّا قُدِّم لها، فهي لا تعتبر من قبيل النَّهَم عزمَها على حيازة ما تريده، مهما كان شاقّاً على الآخرين. وفي لحظة إشباع شهيّتها بالذات، تعتقد أنّها تمارس الاعتدال. وإذا كانت في مطعم يغصُّ بالروّاد، تزعق زعقةً خفيفة إزاء الصَّحن الذي قدَّمته إليها نادلةٌ مُرهَقة، وتقول: "آه، هذا كثير جدّاً! خُذيه من هنا وأحضِري لي رُبعَه تقريباً." فإذا سُئلت، قالت إنَّها فعلت ذلك لتجنُّب الهَدر. ولكنَّها إنَّما تفعل ذلك بالحقيقة لأنَّ مسحة التَرَف والتأنُّق التي استعبدناها لها يُغيظُها منظرُ مقدارٍ من الطعام يفوق ما يصدف إنَّها تُريده.

إنَّ القيمة الحقيقيَّة للعمل الهادئ والخفيِّ الذي ما انفكَّ غُلبوص يبذله طوال سنين على هذه العجوز يمكن أن تُقاس بطريقة سيطرة معدتها الآن على كامل حياتها. فالمرأةُ الآن في ما يمكن أن نسمّيَه حالةً ذهنيَّة محورها "كلُّ ما أُريده." ذلك أنَّ كلَّ ما تُريده هو فنجان شاي مصنوعٌ على نحوٍ يُناسِبها، أو بيضة مسلوقة سلقاً مؤاتياً، أو قطعة خبز مُحمَّصة بطريقةٍ مرغوبة. ولكنَّها لا تجد البتَّة أيَّة خادمة أو صديقة تفعل هذه الأُمور البسيطة "بالطريقة المناسِبة"، لأنَّ رغبتها في "المُناسِب" تُخفي تطلُّباً نَهِماً لمتَع الطعام المضبوطة، وشِبه المستحيلة، التي تتصوَّر أنَّها تتذكَّرها من الماضي، ذلك الماضي الذي تصفُه بأنَّه "تلك الأيّام التي فيها كان يمكن الحصول على خادمات جيِّدات" لكنِ المعروف عندنا بأنَّ الأيَّام التي فيها كانت حواسُّها سهلةَ الإرضاء وكان لها مِتَعٌ من أنواع أُخرى جعلتها أقلَّ اعتماداً على مِتَع الطعام. في هذه الأثناء تُنتج الخَيبة اليوميَّة رداءة مزاج يوميَّة، حيثُ تُبدي الطبّاخاتُ كياسةً

وتفتر الصداقات.[1]

وإذا حدث أنَّ العدوَّ أدخل في ذهنها ريبةً واهية بأنَّها تُعنى بالطعام فوق الحدّ، فإنَّ غُلبوص يردُّ عليها بأن يُوسوس لها بأنَّه لا يهمُّها ما تأكله هي، بل "ترغب فعلاً في أن يُقدَّم لِوَلدها أطعمةً طيِّبة." وفي الواقع طبعاً أنَّ جشعها ما برح على مدى سنين عديدة واحداً من المصادر الأساسيَّة لمشقَّاته وانزعاجه في البيت.

والآن، مريضك هو ابنُ والدته. فبينما تبذل قُصارى جهدك، مصيباً تماماً، على جَبَهات أُخرى، يجب ألاَّ تُهمِل بعض التسلُّل الهادئ في ما يتعلَّق بالنَّهَم. ولكونه ذَكَراً، فليس من المُرجَّح أن يؤخذ بتمويهِ "كلُّ ما أُريده." فالذُّكور يُحوِّلون أشخاصاً ذوي نَهَم، على أفضل نحوٍ، باستغلال غرورهم الباطل. لذا ينبغي حملُهم على حسبان أنفسهم خُبَراء في ما يتعلَّق بالطَّعام، وذلك بأن يُفاخِروا بعثورهم على المطعم الوحيد في البلدة حيثُ تقدَّم شرائح اللَّحم مطهوَّةً "كما ينبغي." فما يبدأ بصورةِ غرور، يمكن عندئذٍ أن يُحوَّل إلى عادة بطريقةٍ تدريجيَّة. ولكنْ كيفما عالجتَ الأمر، فالمهمُّ حقّاً هو أن تُوصِل زبونك إلى الحالة التي فيها "يُحرِجُه ويُخرِجه" إنكارُه الانغماس في أيِّ أمر، كائناً ما كان: الشمپانيا أو الشاي، النبيذ أو السجائر؛ إذ إنَّ محبَّته وإنصافه وطاعته عندئذٍ تصير كلُّها تحت رحمتك.

أمَّا مجرَّدُ الإفراط في تناول الطعام فهو أقلُّ قيمةً من التَرَف والتأنُّق. واستخدامُه الأساسيُّ أشبه بتهيئة مدفعيَّة لشنِّ هجماتٍ على البساطة والانضباط. ففي هذا الموضوع، كما في كلِّ موضوعٍ سواه، أبقِ زبونك في حالةٍ من الروحانيَّة الزائفة. لا تدَعه أبداً يُلاحِظ الناحية

[1] إن تركيز هذه المرأة على نوعية طعامها وكيفية إعداده هو أمر يجعلها مستعبَدة لمزاجها في الطعام، ويجعل مَنْ حولها منزعجين لصعوبة إمكانية إرضائها.

الطِّبيَّة، بل أبقِه متسائلاً عن أيِّ كبرياء أو قلَّة إيمان أوقعَته في يدك، في حين أنَّ تفحُّصاً بسيطاً لِما كان يأكله أو يشربه في آخِر أربع وعشرين ساعة يُبيِّن له من أينَ استمدَدتَ ذخيرتك، ويُمكِّنه تالياً أن يُعرِّض خطوط اتِّصالك للخطر بقليل جدّاً من الانضباط في تناول الطعام أو الشراب. وإن كان لا بدَّ من أن يُفكِّر في الناحية الطِّبِّيَّة من البساطة والانضباط، فألقِمه الكِذبةَ الكُبرى التي حملْنا الآدميِّين الإنكليز على تصديقها: أنَّ المزيد من التمرين الرياضيِّ والإرهاق الناتج منه مُحبَّذان على نحوٍ خاصٍّ لتعزيز هذه الفضيلة. أمّا كيف يُعقَل أن يصدِّقوا هذا إزاء الشهوانيَّة رديئة السمعة لدى الجنود والبحّارة فسؤال يَحسُن أن يُطرَح.[٢] غير أنَّنا استخدمنا مُعلِّمي المدارس لنشر هذه الحكاية بطريقة عكسيَّة: فهم أشخاصٌ كانوا مَعنيِّين حقّاً بالبساطة والانضباط كمُبرِّر للألعاب الرياضيَّة، ومن ثَمَّ أوصَوا بالألعاب الرياضيَّة كأداة مُساعِدة على البساطة والانضباط. ولكنَّ هذه المسألة برُمَّتها أكبرُ من أن نُعالجها في ذيلِ رسالة.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٢ فالجنود والبحارة يكثرون من التمرين، ويكثر عندهم الإرهاق، ومع هذا فالانضباط والبساطة أمران لا يتصف هؤلاء بهما.

١٨

عزيزي عَلقَم،

كان ينبغي لك في الكلّيَّة، ولو على يدِ صَلبغوب، أن تتعلَّم التّقنيَّة الروتينيَّة للتجربة الجنسيّة. وبما أنَّ هذا الموضوع كلَّه، بالنسبة إلينا نحن الأرواح، موضوعٌ رتيب ومُمِلٌّ جدّاً (رُغم كونه ضروريّاً كجزءٍ من تدريبنا)، فسأمرُّ به مرورَ الكِرام. أمَّا في المسائل الكُبرى التي تتعلَّق بهذا الموضوع، فأعتقد أنَّ عليك أن تتعلَّم مقداراً لا بأس به.

إنَّ مطلب العدوّ من الآدميِّين يتّخذ صورة خيارَين كِلاهما مُرّ: إمَّا البتوليَّة التامَّة وإمَّا الزواج الأُحاديّ الصارم. ومنذ انتصار أبينا الباهر الأوَّل، جعلْنا الخيار الأسبق صعباً عليهم جدّاً. أمَّا الخيار الأخير، على مدى القرون القليلة الأخيرة، فما بَرِحنا نُقفِل عليه كسبيلٍ للفرار. وقد فعلنا ذلك من خلال الشُّعَراء والروائيِّين، بإقناع الآدميِّين أنَّ اختباراً غريباً، وقصير الأجَل عادةً، يُسمُّونه "الوقوع في الحبّ"، هو الأساس الصالح الوحيد للزواج؛ وأنَّ الزّواج يمكنه، وينبغي له، أن يُحيل هذه الإثارة حالةً دائمة؛ وأنَّ زواجاً لا يؤدّي إلى ذلك لا يعود مُلزِماً. هذه الفكرة هي مُحاكاتُنا الساخرة لفكرةٍ صدرت من العدوّ.

إنَّما فلسفة الجحيم كلُّها تستقرُّ على التسليم بالمقولة البديهيَّة بأنَّ أمراً

ما ليس أمراً آخر، وخُصوصاً أنَّ نفساً ما ليست نفساً أُخرى. فمصلحتي هي مصلحتي، ومصلحتك هي مصلحتك. وما يربحه امرؤٌ يخسره آخر. حتَّى الشيءُ العديمُ الحياة هو ما هو بإقصاء جميع الأشياء الأُخرى من المكان الذي يشغله ذلك الشيء. وإذا تمدَّد، فإنَّما يتمدَّد بدفع الأشياء الأُخرى جانباً أو بامتصاصها. والنفس تفعل الأمر عينه. لكنَّ الامتصاص لدى الوحوش يتَّخذ شكل الأكل. أمَّا عندنا نحن، فيعني أن نضخَّ الإرادة والحرِّيَّة من نفسٍ أضعف إلى نفسٍ أقوى. وهكذا، فإنَّ "الكينونة" تعني "كينونةً في حالةٍ من التنافس".

غير أنَّ فلسفة العدوّ لا تتعدَّى ولا تقصر عن محاولة مستمرَّة واحدة لتفادي هذه الحقيقة البديهيَّة. فهو يهدف للوصول إلى تناقُض. إذ ينبغي أن تكون الأشياء كثيرة، ورغم ذلك واحدة أيضاً. فمصلحةُ نفسٍ مّا يجب أن تكون مصلحة نفسٍ أُخرى. هذه الاستحالة يُسمِّيها محبَّة. وهذا الدواء العامُّ ذاته يُمكِن أن يُرى وراء كلِّ ما يفعله عدوُّنا، بل أيضاً كلِّ ما هو عليه بطبيعته، أو يزعم أنَّه عليه. وهكذا فحتَّى هو ذاتُه لا يقنع بأن يكون وحدة حسابيَّة مُطلَقة، بل يزعم أنَّه ثلاثةٌ وواحدٌ أيضاً، في سبيل أن يتيسَّر لهذا الهُراء بشأن المحبَّة أن يجد موطئ قَدَم في طبيعته. وفي كفَّة الميزان الأُخرى، يُدخِل إلى المشهد واقعَ ذلك الاختراعَ الخبيث المتمثِّل في الكِيان العُضويّ، حيثُ تُحوَّل الأجزاء عن التنافُس، الذي هو مصيرها الطبيعيّ، وتُدفَع إلى التعاون.

إنَّما حافزه الحقيقيُّ في التركيز على كون الجنس أُسلوبَ التوالُد بين الآدميِّين واضحٌ كلَّ الوضوح في الاستخدام الذي جعله له. فمن وجهة نظرنا، كان يمكن أن يكون الجنسُ بريئاً تماماً. إذ كان يمكن أن يكون مجرَّد طريقةٍ أُخرى بها تفترس نفسٌ أقوى نفساً أضعف، كما هي الحال في الواقع بين العناكب، حيث تختم العروس مراسم زواجها

بالتهامها للعريس. ولكنْ لدى الآدميّين ربط العدوُّ، بلا مُسوِّغ، الرغبةَ الجنسيَّة بالحُبِّ بين الزَّوجَين. ثُمَّ إنَّه جعل الذُرِّيَّة معتمدةً على الوالِدَين وزوَّدهما بحافز لإعالة هذه العائلة، مُنتِجاً بذلك العائلة، وهي مثلُ الكيان العضويِّ، إلاَّ أنَّها أسوأُ ؛ لأنَّ الأعضاء أكثرُ تميُّزاً، غير أنَّهم أيضاً أكثر اتِّحاداً على نحوٍ أكثر وعياً ومسؤوليَّةً. ففي الواقع أنَّ الأمر كلَّه يتبيَّن أنَّه مجرَّد وسيلة إضافيَّة لاستجلاب المحبَّة.

والآن تأتي النكْتة. فالعدوُّ وصف الزوجين بأنَّهما "جسد واحد". لم يقل: "زوجان سعيدان" أو "زوجان تزوَّجا لأنَّهما واقعان في الحبّ." ولكنَّ في وسعك أن تجعل الآدميّين يتجاهلون ذلك. كما أنَّ في وسعك أيضاً أن تجعلهم ينسَون أنَّ الرجُل الذي يدعونه بولس لم يَقصر ذلك الوصف على الزوجَين المتزوِّجَين. فمُجرَّد المُجامعة، في نظره، تجعل الشريكَين "جسداً واحداً". وهكذا يمكنك أن تجعل الآدميّين يتقبَّلون على سبيل الغَزَل والمديح البيانيِّ لـ"لوقوع في الحبّ" ما كان بالحقيقة أوصافاً للأهميَّة الحقيقيَّة المُضفاة على الوصال الجنسيّ. فالحقيقة هي أنَّه حيثما يضطجع رجلٌ مع امرأة، فهناك – أراقهما ذلك أم لم يرُق – تقوم بينهما علاقةٌ فائقة يجب أن يتمتَّعا بها إلى الأبد، أو يتحمّلاها إلى الأبد. ومن التصريح الصحيح بأنَّ هذه العلاقة الفائقة قُصِد بها أن تُنتج – وإذا تمَّ الدخول فيها طوعاً يغلب دائماً أن تُنتج بالفعل – عاطفةَ حُبٍّ وعائلة، يُمكن أن نحمل الآدميّين على أن يستنتجوا الاعتقاد الزائف أنَّ مزيج الحبّ والخوف والشهوة، وهو ما يدعونه "الوقوع في الحبّ"، هو الأمر الوحيد الذي يجعل الزواج سعيداً أو مقدَّساً على السواء. ويسهل إحداثُ هذا الضلال لأنَّ "الوقوع في الحبّ" غالباً ما يسبق، في أوروپا الغربيَّة، الزيجاتِ التي تُعقَد إطاعةً لمقاصد العدوّ، أعني بنِيَّة الأمانة والوفاء والإنجاب والوداد؛ تماماً مثلما تُرافِق العاطفة

الدينيَّة غالباً – لكنْ ليس دائماً – اهتداء المرء إلى طريق العدوّ. بعبارة أُخرى، يجب تشجيع الآدميِّين على أن يجعلوا أساس الزواج نسخةً زاهيَة الألوان ومشوَّهة لشيءٍ يَعِدُ العدوُّ حقّاً بأن يكون نتيجةً للزواج. وتترتَّب على ذلك فائدتان. ففي المقام الأوَّل، يمكن تعويق الآدميِّين غير القادرين على كبح النفس عن التماس الزواج حلاً لأنَّهم لا يجدون أنفسهم "واقعين في الحبّ"، ولأنَّ فكرة الزواج لأيِّ دافعٍ آخر تبدو لهم – بفضلنا – دنيئة ومدعاةً للسخرية. أجل، هكذا يفكِّرون! فإنَّهم يحسبون نيَّة الوفاء لشريكٍ واحد في سبيل العون المُتبادَل، ولأجل المحافظة على العفاف، ونَقل الحياة، أمراً أدنى من عاصفة العاطفة. (لا تُهمِل جعْل زبونك يفكِّر في خدمة الزفاف بوصفها مُثيرةً للاشمئزاز جدّاً.) أمَّا في المقام الثاني، فإنَّ أيَّ افتتان جنسيّ من أيِّ نوع، ما دام يقصد الزواج، سيُعتبَر "حُبّاً"، وسيُنظَر إلى "الحبّ" على أنه عُذرٌ للرجُل عن كامل الذَّنب الذي يجلبه عليه تزوُّجه بامرأةٍ وثنيَّة أو بلهاء أو خليعة، وحمايةٌ له من جميع العواقب المترتِّبة على ذلك. ولكنْ سوف أُطلِعك على المزيد ممّا يتعلَّق بهذا في رسالتي التالية.

عمُّك المُحبّ
خُربُر

٢٩

عزيزي عَلقَم،

طالما فكَّرتُ مليّاً في السؤال الذي تضمَّنَته رسالتُك الأخيرة. فكما سبق أن بيَّنتُ بوضوح، إذا كانت جميع النفوس تخوض تنافُساً بسبب طبيعتها، وكانت فكرةُ العدوّ عنِ المحبَّة بالتالي تنطوي على تناقُض لفظيّ، فماذا يحصل لتنبيهي المتكرِّر بأنَّه يحبُّ حقّاً الطُّفيليّات الآدميَّة ويرغب حقّاً في أن تتمتَّع بالحرِّيَّة ودوام الوجود؟ أرجو، يا ولدي العزيز، ألاَّ تكون قد أطلعتَ أحداً على رسائلي. ليس لكون هذا الأمر مهمّاً بطبيعة الحال. فمن شأن أيّ شخص أن يدرك أن ظهور الهرطقة التي وقعتُ فيها هو محضُ صِدفة. وعلى فكرة، أرجو أن تكون أنت قد فهمتَ أيضاً أنَّ بعض إشاراتي الازدرائيَّة ظاهريّاً إلى صَلبغوب إنَّما كانت على سبيل المُزاح فحسْب. فأنا بالحقيقة أكنُّ له أسمى الاحترام. وبالطبع، لم أعنِ جدِّيّاً بعض الأُمور التي قلتُها عن عدم حمايتك من السُّلطات. ففي وسعك أن تثق بي من جهة رعاية مصالحك. إنَّما أبقِ كلَّ شيء طيَّ الكتمان الشديد.

فالحقُّ أنَّني، بزلَّة لسانٍ من جرَّاء اللامبالاة الصِّرف، قلتُ إنَّ العدوَّ يحبُّ الآدميِّين حقّاً. وتلك بالطبع استحالة. فهو كائنٌ مستقلٌّ وهم

مُتميِّزون عنه. لذا لا يمكن أن تكون مصلحتُهم مصلحتَه هو. فلا بدَّ أن يكون كاملُ حديثه عن المحبَّة قِناعاً لشيءٍ آخر. لا بدَّ أن يكون له دافعٌ حقيقيٌّ مّا لخَلقِهم والاهتمام بهم اهتماماً مُضنياً جدّاً. أمّا سبب لجوء الواحد منّا إلى التكلُّم عنه كما لو كان بالحقيقة يحبُّهم هذه المحبَّة غير المعقولة فهو إخفاقُنا في العثور على الدافع الحقيقيّ. ماذا ينوي أن يُطلع منهم؟ هذا هو السؤال غيرُ القابل للحلّ. لستُ أرى أيَّ ضرر في إخبارك أنَّ هذه المسألة عينها كانت سبباً رئيسيّاً من أسباب مشاجرة أبينا مع العدوّ. فلمّا جرى النقاش أوّلَ مرّة في خَلق الإنسان، ولمّا اعترف العدوُّ صراحةً – حتّى في تلك المرحلة – بأنَّه توقَّع حَدَثاً مُعيَّناً بشأنِ صليبٍ ما، كان من الطبيعيّ أن يلتمس أبونا مقابلةً ويطلب تفسيراً. ولم يُقدِّم العدوُّ أيَّ جواب سوى الإتيان بالقصَّة غير القابلة للتصديق عن المحبَّة النزيهة، تلك القصَّة التي ما انفكَّ ينشرها منذئذٍ. وكان طبيعيّاً ألاَّ يستطيع أبونا تقبُّل ذلك. فناشد العدوَّ أن يكشف عن خُططه، وأتاح له كلَّ فرصة. وقد أقرَّ بأنَّه شعر بتلهُّفٍ شديد لمعرفة السرّ. فأجابه العدوّ: "كنتُ أتمنّى لك من كُلِّ قلبي لو تعرف!" عند هذا الحدِّ من المقابلة، كما أتصوَّر، كان أنَّ اشمئزاز أبينا حيال قلَّة ثقة العدو بأبينا هذه، التي لم تُثر أو تتأثر، دفعه إلى أن ينأى بنفسه مسافةً لامتُناهية عن الحضرة بفُجائيَّةٍ أدَّت إلى نشوء حكاية العدوِّ السخيفة بأنَّ أبانا قد طُرد من السماء قسراً. منذ ذلك الحين بدأنا نُدرك لماذا كان مُضطهِدنا كتوماً للغاية. فإنَّ عرشه قائمٌ على السرّ. وقد أقرَّ أعضاء حزبه تكراراً بأنَّنا لو استطعنا يوماً أن نفهم ما يعنيه بالمحبَّة لانتهت الحرب وتمكَّنا من دخول السماء مُجدَّداً. ههُنا تكمن المَهمَّة العظمى. فنحن نعلم أنَّه لا يمكن أن يحبَّ حقّاً: إذ لا أحد يمكنه ذلك؛ وليس لهذا الأمر أيُّ معنى. يا ليتنا فقط نعرف ما هو بصدده حقّاً! لقد جرَّبنا فرْضيَّةً بعدَ

أُخرى، ومع ذلك لم نعرفْ بعد. ولكنْ لا ينبغي أن نفقد الأمل أبداً. فالمزيدُ من النظريّات الأكثر تعقيداً، وجمعُ المعلومات الأوفى فالأوفى، والمكافآت الأسخى للباحثين الذين يُحرِزون تقدُّماً، والمُعاقَبات الأشدّ فالأشدّ لأولئك الذين يُخفقون: هذا كلُّه، إذا ما سَعَينا فيه وسرَّعناه إلى آخِر الدَّهر، لا يُمكِن – بكلِّ يقين – إلاَّ أن يحقِّق النجاح المنشود.

ثُمَّ إنَّك تشكو أنَّ رسالتي الأخيرة لا توضح كون "الوقوع في الحبّ" حالةً مرغوباً فيها للآدميّ أو غيرَ مرغوب فيها. ولكنَّ هذا السؤال، يا عَلقَم، هو بالحقيقة من نوع الأسئلة التي يتوقَّع المرءُ منهم أن يطرحوه! دعْهم يتباحثوا بشأن الحبّ، أو الوطنيَّة، أو العزوبة، أو الشموع على المذبح، أو الامتناع الكُلّيّ عن المُسكِرات، أو الثقافة، أهي "صالحة" أم "طالحة". ألا يمكنك أن تدرك أنْ لا جواب؟ فما من شيءٍ يهمُّ البتَّة، ما عدا هَيْل حالة ذهنيَّة معيَّنة، في ظروفٍ معيَّنة، إلى دفعْ مريض مُعيَّن، في لحظة معيَّنة، أقربَ إلى العدوّ أو أقربَ إلينا. وعليه، يكون أمراً صالحاً للغاية أن تحمل المريض على أن يُقرِّر أنَّ "الحبَّ" إمّا "صالح" وإمّا "طالح". فإن كان رجلاً متعجرفاً يحتقر الجسد احتقاراً مؤسَّساً على الكياسة، ولكنَّه يتوهَّم أنَّ ذلك من قَبيل القداسة، وكان رجُلاً يسرُّه أن يهزأ بمعظم ما يروق أصدقاءه، فدَعه يتَّخذ قراراً مُضادّاً للحبِّ مهما كان الثمن. بُثَّ فيه تقشُّفاً مُبالَغاً فيه، ثُمَّ متى فصلتَ نشاطه الجنسيَّ عن كلِّ ما قد يُهذِّبه فثقِّل عليه به بصورةٍ مّا أكثرَ بهيميَّةً وسخريةً. أمّا إذا كان رجُلاً عاطفيّاً ساذجاً، فغذِّه بنتاج الشعراء الصِّغار وروائيِّي الدرجة الخامسة من أتْباع المدرسة القديمة، إلى أن تجعله يعتقد أنَّ "الحبَّ" لا يُقاوَم كما أنَّه يستحقُّ في جوهرة المكافأة بطريقة من الطُرق. وإنّي أُوكِّد لك أنَّ هذا الاعتقاد ليس كثيرَ الفائدة في إحداث العفاف العَرَضيّ، غير أنَّه وصفةٌ لا مثيل لها في سبيل حالات الزِّنى

المأساويَّة المُتطاوِلة "الشريفة" الرومنطيقيَّة التي ستؤدِّي، إذا سار كلٌّ شيء على ما يرام، إلى جرائم القتل والانتحار. حتَّى إذا أخفق ذلك، يمكن أن يُستخدَم لدفع المريض إلى إقامة زواج نافع. فإنَّ للزواج، رغم كونه من اختراع العدوّ، منافعَه الفعّالة. إذ ينبغي أن يكون بين جيران مريضك بضعُ صبايا من شأنهنَّ أن يجعلن الحياة المسيحيَّة صعبةً جدّاً عليه، إن تسنَّى لك فقط أن تُقنِعه بأنْ يتزوَّج بإحداهنّ. رجاءً، أرسل إليّ تقريراً بهذا الشأن عندما تكتب إليّ تالي مرَّة. وفي هذه الأثناء، ليكُن ماثلاً في ذهنك بوضوحٍ أنَّ حالة "الوقوع في الحبّ" هذه ليست، في ذاتها، بالضرورة مؤاتيةً لنا أو للطَّرَف الآخر. فما هي إلاَّ فُرصةٌ نحاول نحن والعدوُّ جميعاً أن نستغلَّها. وشأنُها شأنُ معظم الأمور التي تروق الآدميِّين وتشوقهم – مثل الصحَّة والمرض أو الشيخوخة والشباب أو الحرب والسِّلم – هي بشكلٍ رئيسي مادَّةٌ خام من زاوية النظر الخاصَّة بالحياة الروحيَّة.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٢٠

عزيزي عَلقَم،

لاحظتُ باستياءٍ شديد أنَّ العدوَّ، في الوقت الراهن، قد وضع حدّاً قسريّاً لهجماتك المباشرة على عفَّة المريض. وكان ينبغي لك أن تعلم أنَّه يفعل ذلك دائماً في نهاية المطاف، كما كان ينبغي لك أن تتوقَّف قبل بلوغ هذه المرحلة. فإنَّ واقع الحال أتاح لمريضك أن يستبين الحقيقة الخَطِرة المتمثِّلة في كون هذه الهجمات لا تستمرُّ إلى ما لا نهاية. وعليه، فليس في وسعك أن تستعمل من جديد ما هو سلاحُنا الأفضل رغم كلِّ شيء، ألا وهو اعتقاد الآدميِّين الجهّال أنْ ليس من أملٍ بالتخلُّص منّا إلاَّ بالاستسلام لنا. ويُخيَّل إليَّ أنَّك قد حاولتَ إقناعه بأنَّ العفَّة مُضِرَّة بالصحَّة؟

لم أتلقَّ منك حتّى الآن تقريراً عن صبايا الحيّ. فمن الضروريّ أن أحصل على تقريرٍ كهذا في الحال، لأنَّه إن لم نستطِع أن نستخدم رغبته الجنسيَّة لجعله غيرَ عفيف يجب علينا أن نحاول استخدامها لحثِّه على زواجٍ مرغوبٍ فيه. إنَّما في هذه الأثناء أودُّ أن أُزوِّدك ببعض الإلماعات إلى نوعيَّة المرأة – أقصد نوعيَّتها الجسدانيَّة – التي ينبغي تشجيعُه على الوقوع في حبِّها، إذا كان "الوقوع في الحبّ" هو أفضل ما نستطيع

تدبيره.

طبعاً، إنَّ هذه المسألة – بطريقةٍ تقريبيَّة وجاهزة – تُقرِّرها لنا الأرواحُ الأكثرُ سُفليَّةً منِّي ومنك في التراتُبيَّة الدُّنيا. فمن مهامِّ هؤلاء الأسياد العظام أن يُنشئوا في كلِّ عصر تضليلاً عامّاً في ما يمكن أن يُدعى "الذَّوق" الجنسيّ. وهم يقومون بذلك من طريق استخدام الحلقة الضيِّقة من الفنَّانين والخيَّاطين والمُمثِّلات والمُعلِنين المقبولين الذين يُحدِّدون نموذج الأناقة ومراعاة الزيِّ الحديث. والهدف إبعادُ أفرادِ كُلِّ جنسٍ عن أفراد الجنس الآخر الذين يُرجَّح جدّاً أن يعقدوا معهم زيجاتٍ نافعة روحيّاً وسعيدة ومُنتِجة ونامية.

وهكذا تيسَّر لنا حتى الآن، على مدى قرونٍ طويلة، أن ننتصر على الطبيعة إلى حدِّ جعْلنا بعضَ خصائصِ الذُّكور الثانويَّة (كاللحية مثلاً) بغيضةً لدى جميع الإناث تقريباً؛ وفي ذلك أكثرُ ممَّا قد تفترض. وفي ما خصَّ ذوق الذكور، عدَّلنا وبدَّلنا مقداراً لا بأس به. ففي زمانٍ من الأزمنة، وجَّهنا ذلك الذَّوق إلى نوع الجمال التِّمثالانيّ والأرِستقراطيّ،[1] مازجين زهو الرجال بشهواتهم، ومُشجِّعين على إنجاب النسل البشريِّ بصورةٍ رئيسيَّة من أكثر النساء عجرفة وإسرافاً. وفي زمان آخر، اخترنا نموذجاً أُنثويّاً مُضخَّماً، واهناً وواهياً وفاتراً، بحيث تغدو الأولويَّة والأوَّليَّة للحماقة والجبن وكلِّ ما يصاحبهما عموماً من زيف وبُهتان وقِلَّة عقل. أمَّا في الزمان الحالي، فنحن نسير في الاتِّجاه المعاكس. فقد أعقب عصرُ الجاز عصرَ القالس، ونحن الآن نُعلِّم الرجال أن يحبُّوا النساء اللواتي لا تكاد أجسادهنَّ تختلف عن أجساد الشبَّان. وبما أنَّ هذا النوعٍ من الجمال أسرعُ زوالاً بعدُ من معظم الأنواع، فلذلك نُفاقِم رعب الأُنثى

١ يقصد صورة المرأة التي تبدو أرستقراطية وذات مواصفات جمال خاصة. و تتسم بالعجرفة والإسراف.

المُزمِن من التقدُّم في السنّ (مُحرِزين كثيراً من النتائج الباهرة) ونجعلها أقلَّ رغبةً في إنجاب الأولاد وأقلَّ قدرةً على ذلك. وليس هذا فحسب، بل قد أحدثنا زيادة كبيرة في الإباحة التي يُجيزها المجتمع لتمثيل العُري الظاهريّ (لا العُري الحقيقيّ) في الفنّ، وعرضه على المسرح أو شواطئ السباحة. وذلك كلُّه زائفٌ بالطَّبع: فالأجساد الظاهرة في الفنِّ الشائع مرسومة على نحوٍ مُزيَّف، والنساء الحقيقيّات في ملابس السباحة أو الألبسة الضيِّقة يتمُّ عادةً حصرُهنَّ وضغطُهنَّ ودعمُهنَّ لجعلهنَّ يظهرن أصلب عوداً وأنحف قدّاً وأكثر شبهاً بالشبّان ممّا تسمح الطبيعة للمرأة الكاملة النُّضج بأن تظهر عليه.[٢] ولكنْ في الوقت عينه يُعلِّم العالَم الحديث أن يعتقد أنَّ ذلك أمرٌ "صريح" و"صحّيّ" وأنَّه رجوعٌ إلى الطبيعة. ونتيجةً لذلك، نداب أكثر فأكثر في توجيه شهوات الرجال إلى شيءٍ غير موجود: جعْل دور العين في النشاط الجنسيّ ذا أهميَّة متزايدة، وفي الوقت نفسه جعْل المطالب المترتِّبة على ذلك مستحيلةً أكثر فأكثر. وما يتبعُ ذلك تستطيع أن تتكهَّن به بسهولة!

هذه هي الاستراتيجيَّة العامَّة للوقت الراهن. ولكنْ داخلَ الإطار سيتبيَّن لك بعدُ أنَّ من الممكن أن تستحثَّ رغبات المريض في واحد من اتِّجاهين. فإذا نظرتَ بتدقيق داخلَ قلبِ أيِّ إنسان، يتبيَّنُ لك أنَّ امرأتين وهميَّتين على الأقلِّ تتنابانه: ڤينوسٌ دنيويَّةٌ وأُخرى جهنَّميَّة، وأنَّ رغبته تختلف نوعيّاً تبعاً لغرضها. فثمَّة نوعيَّةٌ تكون رغبته فيها محطَّ رضىً طبيعيٍّ من قِبَل العدوّ، لكونها ممتزجةً بالمحبَّة والإحسان عن طيبِ نفس، وخاضعةً بسرورٍ لالتزام الزواج، ومُصطبِغةً كلِّيّاً بذلك

٢ «المثالية» التي تتصف بها أجساد النساء في أيامنا هذه تتحقَّق جزئياً من خلال عمليات تغييرٍ في الأجساد، تُدْعى عمليات التجميل. لو أن سي. أس. لويس كان موجوداً اليوم، لخصَّ هذا الأمر حديثاً مطوَّلاً.

النُّور الذهبيّ الذي نبغِضُهُ، نورِ الاحترام والطَبَعيَّة. وثمَّة نوعيَّةٌ أُخرى يرغبُ فيها بهيميّاً، ويرغبُ أن يرغبَ فيها بهيميّاً، نوعيَّةٌ تُستخدَم أحسنَ استخدامٍ لتطويحه عن فكرة الزواج من الأساس، ولكنْ حتّى داخلَ نطاق الزواج يميلُ لأنْ يُعاملِها كما لو كانت عبدةً أو صنماً أو شريكةً في جريمة. ثمَّ إنَّ حُبَّه للأُولى قد ينطوي على ما يدعوه العدوُّ شرّاً، إنّما بصورةٍ عَرَضيَّة فقط. فمن شأن الرجل أن يتمنَّى لو لم تكن المرأة زوجة رجُلٍ آخر، ويأسف لكونه لا يستطيع أن يُحبَّها شرعيّاً. ولكنْ في ما يتعلّق بالنوعيَّة الثانية، يكون الشرُّ الذي يُحَسُّ هو ما يريده: إنَّه تلك "القرصة اللاذعة" في النكهة التي يسعى إليها. ففي الوجه، يُحِبُّ ما يُرى من البهيميَّة أو التجهُّم أو المكر أو القسوة؛ وفي الجسم، يستهويه شيءٌ ما مختلفٌ تماماً عمَّا يدعوه جمالاً في العادة، شيءٌ قد يصفه — في ساعةِ تعقُّل — بأنَّه قُبحٌ، إلاَّ أنَّه — بفضل مهارتنا — يمكن أن يُداعِب لديه وترَ استحواذه الخاصّ الفجّ.

ولا شكَّ أنَّ الاستخدام الحقيقيَّ لڤينوسَ الجهنَّميَّة هو أن تكون مومساً أو عشيقة. أمَّا إذا كان زبونك مسيحيّاً، وكان مُدرَّباً جيِّداً لرفض ذلك الهُراء المتعلق "بالحبّ" القاهر المُستبيح، ففي وسعك أغلبَ الأحيان أن تستميلَه كي يتزوَّج بها. وذلك جديرٌ جدّاً بجعله يحصل. ستكونُ قد أخفقتَ في ما يتعلّق بالزنى والرذيلة المنزوية المخفية؛ ولكنَّ ثمَّة أساليبَ أُخرى — وغيرَ مباشرةٍ على نحوٍ أوفر — لاستخدام نشاط الرجال الجنسيّ في سبيل خرابه. وبالمناسبة، فهي ليست فقط أساليب فعّالة، بل مُمتِعة أيضاً. فالشقاء الناجم عنها هو نوعٌ ثابتٌ للغاية ورائع جدّاً.

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

١٦

عزيزي عَلقَم،

نعم، إنَّ فترة من التجربة الجنسيَّة هي وقتٌ مؤاتٍ تماماً للعمل في هجوم ثانويٍّ على نَكَد المريض وغيظه. حتَّى إنَّه يمكن أن يكون هجوماً رئيسيّاً، ما دام المريض يحسبه هجوماً ثانويّاً. إنَّما هنا، كما في كلِّ شيءٍ آخر، يجب تمهيد السبيلِ لانقضاضك الأخلاقيِّ عليه بإعماء ذهنه.

إنَّ البشر لا يُغضِبهم مجرَّد حلول البليَّة، بلِ البليَّةُ التي يتصوَّرون أنَّها ظُلم. والشعور بالظُّلم يتوقَّف على إحساس المرء أنَّ حقّاً من حقوقه قدِ اهتُضِم. وعليه، فكلَّما تضاعفتِ الحقوق التي يمكنك أن تحثَّ مريضك على أن يطلبها من الحياة، زادت أوقاتُ شعوره بالظُّلم، وساءت طِباعُه من جرّاء ذلك. والآن، لا بدَّ أن تكون قد لاحظتَ أنَّه ما من شيءٍ يُثير غضبَه الشديد بسهولةٍ مثل حرمانه، على غير توقُّع منه، كِسراً من الوقت اعتبر أنَّه سيكون تحت تصرُّفه تماماً. فالذي يُفقِده صوابه إنَّما هو الزائر غير المُنتظَر (حين كان يصبو إلى أُمسيةٍ هادئة)، أو زوجة صديقه الثرثارة (إذ تظهر حين كان يصبو إلى حديثٍ شخصيٍّ وِدّيٍّ مع صديقه). وهو ليس حتَّى الآن فاتر المحبَّة أو مُتكاسلاً إلى حدٍّ يجعل مثل هذه الدواعي اليسيرة إلى إبداء المجاملة أمراً لا يطاق بحدِّ

ذاته. فهي تُغضِبه لأنّه يحسب وقته مِلكاً خاصّاً له، ويشعر بأنَّه يُسرَق منه. لذلك يجب عليك أن تُبقيَ في ذهنه بكلِّ حماسةٍ الافتراضَ الغريب: "وقتي هو مِلكي." فدَعه يَحُز الشعور بأنّه يبدأ كلَّ يوم بوصفه المالك الشرعيَّ لأربع وعشرين ساعة. وليشعُر بأنّه يؤدّي ضريبةً باهظة في جُزء ملكيّته الذي يُضطرُّ لأنْ يُحوّله إلى أرباب عمله، ويتبرَّع بهبةٍ سخيَّة في ذلك الجزء الإضافيِّ الذي يُخصِّصه للواجبات الدينيَّة. ولكن ما يجب ألاَّ نسمح له بأن يشكَّ فيه البتَّة هو أنَّ المقدار الإجماليَّ الذي تُقتطع منه أجزاءٌ من هذا النوع كان - بطريقةٍ مُبهَمة - حقَّه الشخصيَّ الخاصَّ منذ ولادته.

ولديك هُنا مهمَّةٌ دقيقة. فالافتراض الذي ينبغي أن نجعله يستمرُّ في طرحه سخيفٌ جدّاً بحيث إنَّه إذا تعرَّض للشكِّ مرَّةً لا نقوى حتّى نحنُ على الاهتداء إلى أوهى حجَّةٍ للدفاع عن هذا الافتراض. إنَّه لا يستطيع أن يُوجِد، ولا أن يستبقيَ، لحظةً واحدةً من الزَّمن. فهو كلُّه يأتيه على سبيل العطيَّة الصِّرف. وإلاَّ، فلماذا لا يحسب الشمس والقمر أيضاً في عِداد أملاكه المنقولة؟ ثُمَّ إنَّه نظريّاً ملتزمٌ أن يخدم العدوَّ خدمةً كلِّيَّة. فلو ظهر له العدوُّ بهيئة جسميَّة وطالبه بتلك الخدمة، ولو على مدى يومٍ واحد، ما كان ليرفض. ومن شأنه أن يكون منفرجاً إلى التمام إنْ لم يتضمَّن ذلك اليومُ الواحد شيئاً أصعب من الإصغاءَ إلى حديث امرأةٍ بلهاء. كما أنَّ من شأنه أن ينفرج، إلى حدِّ الخيبة تقريباً، لو أنَّ العدوَّ، لنصف ساعةٍ في ذلك اليوم، قال له: "لكَ الآن أن تمضي وتتسلّى." والآن، إذا فكَّر في افتراضه ذاك لحظةً واحدة، فحتَّى هو لا بدَّ أن يدرك أنَّه في ذلك الوضع فعلاً كلَّ يوم. فعندما أتكلَّم إذاً عن إبقاء هذا الافتراض في ذهنه، فآخِرُ أمرٍ أعنيه هو أن تمدَّه بحجج للدفاع عن هذا الافتراض. إذ لا توجد حجَّةٌ واحدة من هذا القبيل. فمهمَّتك

سلبيَّةٌ بكلِّ معنى الكلمة. لا تدَع أفكاره تُقارِب هذا الافتراض بأيَّة حال؛ بل غلِّفه بالظلمة، وفي قلب تلك الظلمة دَع شعوره بملكيَّته للوقت يكمن ساكناً، غير خاضع للبحث، لكنْ ناشطاً إلى التمام.

إنَّ الشعور بالملكيَّة، على العموم، أمرٌ يجب تعزيزُه. فالآدميُّون يتمسَّكون دائماً بمطالبَ تتعلَّق بالمِلكيَّة تبدو سخيفةً على السواء في السماء وفي الجحيم، وعلينا أن نُبقيَهم يعملون ذلك كلَّ حين. وكثيرٌ من مقاومة العفاف صادرٌ عنِ اعتقاد البشر أنَّهم هم "يملكون" أجسادهم: تلك المنازل الهائلة التي تحفُّ بها الأخطار، والنابضة بالطاقة التي صنعت العالَمين، وفيها وجدوا أنفسهم بغير موافقةٍ منهم، ومنها يُطرَدون بمشيئةِ آخَر! فكأنَّما ابنُ مَلِكٍ صغيرٌ جعله أبوه – من أجل المحبَّة – قيِّماً شرفيّاً على مقاطعة من المقاطعات الكبرى، تحت حكم فعليٍّ يتولاَّه مُشيرون حُكماء، يتمادى حتَّى يتصوَّر أنَّه يملك فعلاً المُدن والغابات والحنطة مثلما يملك مُكعَّبات اللَّعب المنثورة على أرضيَّة حجرة نومه.

ونحن نُنتج إحساس المِلكيَّة هذا ليس بالكبرياء فقط بل بالإرباك أيضاً. إذ إنَّنا نُعلِّمهم ألاَّ يُلاحِظوا مختلف معاني ضمير المتكلم المُتَّصل الدالِّ على المِلكيَّة: الاختلافات المتدرِّجة بدقَّة والجارية من "حذائي" مروراً بـ "خادمي" و "زوجتي" و "أبي" و "سيِّدي" و "بلدي" حتَّى "إلهي". فمن الممكن تعليمُهم تقليص هذه المعاني كلِّها إلى معنى الملكية المقصود في كلمة "حذائي". حتَّى الطفلُ في دار الحضانة يمكن تعليمُه أن يعني بقوله "دُبِّي الدُّمية" لا مُتلقِّيَ العاطفةِ المعهودَ الذي تجمعه به علاقةٌ خاصَّة (فإنَّ ذلك هو ما سيُعلِّمهم العدوُّ أن يَعنُوه إن لم نكن حِراصاً)، بلِ "الدُّبَّ الذي استطيع أن أُمزِّقه إرْباً إذا شئتُ". ففي كفَّة الميزان الأُخرى، علَّمْنا البشر أن يقولوا "إلهي" بمعنىً لا يختلف بالحقيقة كثيراً عن قولهم "حذائي"، أي بمعنى

"الإله الذي لي فيه حقٌّ نظيرَ خدماتي المُميَّزة والذي أستغلُّه من على المِنبَر... الإله الذي جهَّزْتُ لي رُكناً فيه."

وطول الوقت تكون النُّكتة في أنَّ الكلمة "لي" بمعناها الامتلاكيّ الكامل لا يمكن أن يتفوَّه بها أيُّ كائن بشريّ بشأنِ أيِّ شيء. ففي نهاية المطاف، سيقول إمَّا أبونا وإمَّا العدوُّ "لي" بشأن كلِّ ما هو موجود، ولا سيَّما بشأن كلِّ إنسان. ولَسوف يتبيَّن لهم في الأخير – كُن على ثقة – مَن يمتلك بالحقيقة وقتهم ونفوسهم وأجسادهم. فمن المؤكَّد أنَّ هذه كلَّها ليست مِلكاً لهم، مهما حصل. أمَّا حاليّاً فالعدو يقول "لي" بشأن كلِّ شيء على أساس أنَّه صنع الكُلّ، وهذا أساسٌ شرعيٌّ متباهٍ. ولكنَّ أبانا يأمل في النهاية أن يقول "لي" بشأنِ جميع الأشياء على أساس الاستيلاء، وهو أساسٌ أكثر واقعيَّةً وديناميَّة.

عمُّك المُحبّ

خُربُر

٢٢

عزيزي عَلقَم،

هكذا إذاً! إنَّ زبونك واقعٌ في الحُبّ – وفي أسوإ نوعٍ كان يمكن أن يقع فيه – وفي حُبِّ امرأةٍ لا تظهر مجرَّد ظهور في التقرير الذي أرسلتَه إليَّ. وربَّما يهمُّك أن تعلم أنَّ سوء التفاهم اليسير مع الشُّرطة السرِّيَّة، والذي حاولتَ أن تُثيره بشأن بعض التعابير غير الحذرة في إحدى رسائلي، قد سُوِّيَ أمرُه. فإذا كنتَ تعتمد على ذلك كي تضمن مَساعيَّ الحميدة، فسيتبيَّن لك أنَّك على خطأ. ولَسوف تدفع ثمن ذلك، كغيره من أخطائك الفاضحة. إنَّما في هذه الأثناء أُرسِل إليك طيّاً كُتيِّباً نُشِر توّاً، في موضوع دار الإصلاح الجديدة للمُجرِّبين غير الأكفاء. وهو غنيٌّ بالإيضاحات، حتَّى إنَّك لن تجد فيه أيَّة صفحة غامضة.

لقدِ اطَّلعتُ على ملفِّ هذه المرأة، وهاأنَني ما وجدتُ فيه. فهي ليست مؤمنةً فحسب، بل مؤمنة مميَّزة: آنِسة وضيعة، حقيرة، تتكلَّف الابتسام، مُحتشِمة، دافئة اللسان ووقحته، تُشبِه الفأرة، مَذِقة،[١] تافهة، بِكرٌ بتول، مُراهِقة. يا لها من فتاةٍ بهيميَّة. إنَّها تجعلني أتقيّأ. فرائحتها

١ الخمر المذِقة: هي الخمر المخففة بالماء، فتفقد طعمها وجودتها. هذه هي وجهة نظر خربر إلى هذه الفتاة.

النتنة السافعة تفوح من صفحات الملفّ. إنّي أكاد أُجَنُّ إذ أرى كيف ازداد العالم سوءاً. لقد كان من شأنِنا أن نسوقها إلى ساحة المُدرَّج الرومانيّ في الأيّام الغابرة. فذلك هو ما صُنع صنفُها لأجله. ليس أنّها ستنفعنا كثيراً هناك أيضاً. غشّاشةٌ صغيرة ذاتُ وجهين (أنا أعرف هذا النوع) تبدو كما لو كانت ستُصاب بالإغماء عند مرأى الدَّم، ثمّ تموت والبسمةُ على وجهها. مُخادِعةٌ من كلّ جهة. تبدو وكأنّ الزبدة لن تذوب في فمها، غير أنّ لديها ذكاءً عيّاباً هجّاءً. هي مخلوقة من النوع الذي يجدني أنا مُضحِكاً! مُتحشِّمةٌ صغيرة بذيئةٌ قذِرة، ومع ذلك هي مستعدَّةٌ للارتماء بين ذراعي هذا الأبله كأيّةِ بهيمةٍ أُخرى تبغي الإنجاب. لماذا لا ينسفها العدوُّ من أجل ذلك، إنْ كان ممسوساً مهووساً بالبتوليّة، بدلاً من تحويل نظره عنها مُكشِّراً؟

إنَّ عدوَّنا على مذهب المتعة في الصميم. وما تلك الأصوامُ وأسهار الصلاة والخوازيق والصُّلبان كلُّها سوى مظهرٍ كاذبٍ، أو كالزَّبَد على شاطئ البحر فحسب. ففي عُرض البحر، في عُرض بحرِه، هنالك متعة، ومزيدٌ من المتعة. إنّه لا يجعل الأمرَ سرّاً، ففي يمينه "نِعَمٌ إلى الأبد." يا للقرف! لا أظن أنّ لديه أدنى فكرةٍ عن ذلك السرِّ الرفيع والقاتم الذي نرقى إليه في "رؤيا الشقاء". إنّه فظٌّ، يا علقَم. فله عقلٌ بورجوازيّ. إذ قد ملأ عالمه كُلَّه بالنِّعم أو المتَع. ولدى الآدميِّين أُمور يفعلونها طوال اليوم بغير أن يهمَّه ذلك ولو بأدنى حدّ: نومٌ واغتسالٌ، وأكل وشرب، وإقامة علاقة الحبّ، ولعبٌ وصلاةٌ وعمل. فلا بدَّ من تحريف كلِّ شيء حتّى يكون له أيُّ نفع لنا. ونحن نحارب في ظلّ عراقيل قاسيةٍ. فلا شيءَ في صفّنا على نحوٍ طبيعيّ. (ليس أنَّ في هذا عذراً لك. سأُسوِّي حسابي معك سريعاً. فلطالما دأبتَ في كُرهي، وتغطرستَ حين تجاسرْتَ.)

ثمّ إنّه بالطبع مُتعرِّفٌ بعائلة هذه الفتاة وكامل دائرتها. ألَم يُمكِنك

أن ترى أنَّ البيت الذي هي مُقيمةٌ فيه بحدِّ ذاته هو بيتٌ ما كان ينبغي لك أن تدخله أصلاً؟ إنَّ المكان بكامله تفوح منه تلك الرائحة العابقة بالموت. حتَّى إنَّ البُستانيَّ ذاته، رغم أنَّه لم يمضِ على وجوده هناك أكثر من خمس سنواتٍ، بدأ يكتسب هذه الرائحة. حتَّى الضيوفُ، بعد زيارةِ يومَين في آخِر الأُسبوع، يلتصق بهم شيءٌ من تلك الرائحة ويُلازِمهم بعد المغادرة. كما أنَّ الكلب والهرَّة قد تلوَّثا بها. ويا له من بيتٍ مُفعَم بالغموض الذي يتعذَّر اختراقه! نحن على يقين (وهذه مسألة مبادئ أُولى) بأنَّ كلَّ فردٍ من أفراد العائلة يبتزُّ الآخرين أو يستغلُّهم بطريقةٍ ما ... إنَّما لا يمكننا أن نعرف كيف. فهُم حِراصٌ بغيرةٍ تُعادِل غيرة العدوِّ نفسه على صَون السرِّ المتعلِّق بما يكمن حقّاً وراء مظهر المحبَّة النزيهة ذاك. إذ إنَّ البيت وحديقتَهُ جميعاً يُشكِّلان قاذورةً واحدةً مُترامية الأطراف. وتقوم مُشابَهة مُغثية بين حالتهما والوصف الذي وصف به كاتبٌ بشريٌّ السَّماء بأنَّها "الديار التي ليس فيها إلاَّ الحياة، ومن ثَمَّ فكلُّ ما ليس موسيقى هو سكونٌ وسُكوت".

الموسيقى والسُّكون ... كم أُبغِضهما كِلَيهما! وكم ينبغي أن نكون شكورين على أنَّه منذ أن دخل أبونا الجحيم (رغم كون ذلك قد حصل قبل البشر بدهرٍ طويل يمكن التعبير عنه بالسنين الضوئيَّة) لم تُسلَّم بُوصةٌ مُربَّعة واحدة من المكان الجهنَّمي ولا لحظةٌ واحدةٌ من الزمان الجهنَّمي لأيَّةٍ من هاتين القوَّتين البغيضتين، بل ما برح كلُّ شيء يَشغلُه الضَّجيج: الضَّجيج، ذلك المبدأُ الديناميُّ، ذلك التعبير الجهريُّ عن كلِّ ما هو مُبهِج وعديم الرَّحمة وزاخرٌ بالنشاط؛ الضجيجُ الذي يحمينا وحده من نوبات الألم المُمِضَّة والوساوس المُؤنسة والرغبات المُستحيلة. ولَسوف نجعل الكون كُلَّه ضجيجاً في الأخير. لقد خَطَونا بالفعل خطواتٍ عظيمةً في هذا الاتِّجاه بالنسبة إلى الأرض. إنَّ أنغام

السماء وفترات سكونها سوف تُخرَس في النهاية. غير أنَّني أعترف بأنَّ أصواتنا ليست عاليةً كفاية، ولا تكاد تُقارب ذلك بأيَّة حال. ما زالت البحوثُ جاريةً. وفي هذه الأثناء، عليك أنت، أيُّها الصغير المُثير للاشمئزاز...

هنا تتوقَّف المخطوطة فجأةً ثُمَّ تُستأنف بخطٍّ يدٍ أُخرى.

في حُموِّ الإنشاء، سمحتُ لنفسي - على غير قصدٍ منِّي - بأن أتَّخذ شكل أُمِّ أربعٍ وأربعين كبيرة. وهكذا أُملي الباقي على سكرتيري. فإذ قدِ اكتمل التحوُّل الآن، أدركتُ كونه ظاهرةً دوريَّة. ولقد بلغتِ الآدميِّين شائعةٌ ما بشأن هذا التحوُّل، ويظهر وصفٌ مُشوَّه له في نتاج الشاعر ملتون، مع الإضافة السخيفة أنَّ مثل هذه التحوُّلات في الشَّكل "عقابٌ" يفرضه العدوُّ علينا. غير أنَّ كاتباً أكثر حداثة - شخصاً اسمُه يشبه الإپشو- قد قبض على ناصية الحقيقة: أنَّ التحوُّل ينبعث من الداخل، وهو تَجَلٍّ مجيدٌ لقوَّة الحياة التي كان من شأن أبينا أن يعبدها، لو عبد أيَّ شيءٍ آخر غير ذاته. وفي شكلي الحاليّ، أشعر أيضاً بمزيد من الشوق لأنْ أراك وأوحِّدك بذاتي في عناق بِلا فِراق.

التوقيع: ضِفدَعناي

نيابةً عن سموِّه، الوكيلِ الجهنَّميّ، خُربُر، المعلِّم الخبير، الأُستاذ القدير، إلخ.

نيابةً عن سموِّه، الوكيلِ الجهنَّميّ، خُربُر، المعلِّم الخبير، الأُستاذ القدير، إلخ.

٢٣

عزيزي عَلقَم،

ها هو المريض الآن، من خلال هذه الفتاة وعائلتها المثيرة للاشمئزاز، يتعرَّف كلَّ يوم بمزيدٍ من المسيحيِّين المؤمنين، والأذكياء جدّاً أيضاً. وسيكون من المستحيل تماماً، طوال مدَّةٍ غير قصيرة، أن نُزيلِ الروحانيَّة من حياته. لذا فإن ما علينا عمله هو أن نُفسِدها. لا شكَّ أنَّك قد مارستَ غالباً تحويل نفسك إلى ملاكِ نُور، كتمرينٍ استعراضيٍّ تدريبيّ. فالآنَ أوانُ قيامك بذلك إزاء العدوّ. إنَّ العالَم والجسد قد خذلانا، وهكذا تبقى لنا قوَّةٌ ثالثة. وانتصارُ هذا النوع الثالث هو أمجد الكلّ. فإنَّ قدِّيساً مُفسَداً، أو فريسيّاً، أو مُفتِّشاً فضوليّاً، أو ساحراً، يوفِّر في الجحيم تسليةً أفضل ممّا يوفِّر مجرَّدُ طاغيةٍ خسيس أو فاسقٌ فاسد.

إذ أجلتُ نظري في أصدقاء مريضك الجُدد، تبيَّن أنَّ أفضل نقطة للهجوم ستكون عند الحدود الفاصلة بين علم اللاهوت والسياسة. فإنَّ بعضاً من أصدقائه الجُدد واعُوانَ تماماً لمضامين دينهم الاجتماعيَّة وناشطون فيها. وهذا في حدِّ ذاته أمرٌ رديء، إلاَّ أنَّنا نستطيع أن نجعله يؤول إلى الخير.

سيتبيَّن لك أنَّ كثيرين جدّاً من الكتَّاب في موضوع السياسة من

وجهة نظرٍ مسيحيَّة يعتقدون أنَّ المسيحيَّة بدأت تضلُّ السبيل، مبتعدةً عن تعليم مؤسِّسها، في مرحلةٍ باكرة جدّاً. الآن، ينبغي لنا أن نستخدم هذه الفكرة للتشجيع مرَّةً جديدة على مفهوم إيجاد "يسوع تاريخيٍّ" من خلال إزالة "الإضافات والتحريفات" المتأخِّرة، ومن ثَمَّ المفارقة بينه وبين مُجمَل التعليم المسيحيِّ المُتوارَث. ففي الجيل الماضي روَّجنا إنشاءَ "يسوع تاريخيّ" على أُسُسٍ ليبراليَّة وإصلاحيَّة خيِّرة. أمّا الآن، فنحن نُقدِّم "يسوعاً تاريخيّاً" جديداً على أُسس ماركسيَّة وكارثيَّة وثوريَّة.

أمّا حسنات مثل هذه أمّا التركيبات والصياغات، ونحنُ ننوي تغييرها كلَّ ثلاثين سنة أو نحوها، فكثيرة. فهي كلُّها، في المقام الأوَّل، تميل لتوجيه تكريس الإنسان إلى شيءٍ غير موجود، لأنَّ كلَّ "يسوع تاريخيّ" هو غير تاريخي. ذلك أنَّ الوثائق تقول ما تقوله ولا يمكنَ أن يُزاد عليها شيء. وعليه، فكلُّ "يسوع تاريخيٍّ" جديد ينبغي أن يُستخرَج منها باستعمال الطَّمس في نقطة من النقاط والتضخيم في أُخرى، وبذلك النوع من التخمين (الحصيف، النعت الذي نُعلِّم الأدميِّين أن يستخدموه) والذي لن يُضحِّيَ أحدٌ في سبيله بأزهدِ مبلغٍ في الحياة العاديَّة، غير أنَّه يكفي لإنتاج غلَّة وافرة فيها أكثرُ من نابوليونٍ جديد، وأكثرُ من شكسبيرٍ جديد، وأكثرُ من سُويفتٍ جديد، في لائحة كلِّ ناشرٍ تصدر في الخريف. وفي المقام الثاني، تضع جميع هذه التركيبات أهميَّة "يسوعها التاريخيّ" من خلال نظريَّة غريبةٍ مّا يُفترَض أنَّه عمل على نشرها. فلا بدَّ أن يكون "إنساناً عظيماً" بمعنى الكلمة الحديث: شخصاً واقفاً عند نهايةِ خطٍّ من خطوط الفكر بعيدٍ عن المركز وغير مُتَّزن، مهووساً يبيع دواءً عامّاً. وهكذا نصرف أذهان الناس عمَّن هو وعمّا فعله. فأوَّلاً نجعله مجرَّد معلِّم، ثُمَّ نحجب التوافق

الجوهريَّ جدّاً بين تعاليمه وتعاليم سائر معلِّمي الأخلاق العظام. إذ يجب ألاَّ يُسمَح للآدميِّين بأن يلاحظوا أنَّ جميع المعلِّمين الأخلاقيِّين العظام يرسلهم العدوُّ لا ليُلقِّنوا الناس بل ليُذكِّروهم، ليؤكِّدوا من جديدٍ التَّوافهَ الخُلقيَّة البدائيَّة في مواجهة حجْبنا الدائم لها. فنحن نصنع السُّوفسطائيِّين؛ وهو يُقيم سُقراطاً للردِّ عليهم. أمَّا هدفنا الثالث من وراء هذه التركيبات فهو إفسادُ حياة التقوى. فبدلاً من حضور العدوِّ الحقيقيّ، الذي لا بدَّ أن يختبره الناس من خلال الصلاة والممارسات المقدَّسة، نُقدِّم مجرَّدَ شخصٍ مُحتمَلٍ وناءٍ وغامض وغريب، شخصاً تكلَّم لُغةً غريبة ومات منذ عهدٍ بعيد. ولا يمكن بالحقيقة أن يُعبَد غَرَضٌ كهذا. فعوضاً عن عبادة المخلوق للخالق، سرعان ما يصير لديك مجرَّد قائد يهتف له مُوالٍ، وفي الأخير شخصيَّةٌ مميَّزة يُصادِق عليها مؤرِّخ مُنصِف وحصيف.

رابعاً، بالإضافة إلى كون دين من هذا النوع مخالفاً للتاريخ في الصورة التي يرسمها للمسيح، يتبيَّن أنَّه مُزيِّفٌ للتاريخ بمعنىً آخر. فليس من أُمَّة، وقلَّةٌ من الأفراد، ينتقلون حقّاً إلى معسكر العدوّ بفضل الدراسة التاريخيَّة لسيرة حياة يسوع كمجرَّد سيرة. وفي الواقع أنَّ الموادَّ الكافيَة لوضع سيرة كاملة قد حُجبت عنِ البشر. فالمُهتدون الأوائل اهتدَوا بناءً على حقيقة تاريخيَّة واحدة (هي القيامة) وعقيدةٍ لاهوتيَّة واحدة (هي الفداء) تَنطلق مِنْ مفهوم للخطيَّة موجودٌ لديهم أصلاً: الخطيَّة لا باعتبارها مخالفةً لقانون مُنمَّقٍ جديد استحدثه "إنسانٌ عظيم"، بل بصفتها خرقاً للقانون الخُلقيِّ الشامل القديم المُبتذَل الذي علَّمتهم إيّاه مُربِّياتُهم. وقد أتت "الأناجيل" في زمن لاحِق، وكُتِبت ليس لِصُنع مسيحيِّين، بل لبُنيان مسيحيِّين صُنِعوا قبلاً.

وعليه، فإنَّ "يسوع التاريخيَّ"، مهما بدا أنَّه قد يكون خَطِراً بالنسبة

إلينا عند نقطةٍ مَعيَّنة، ينبغي دائماً أن نُشجِّع عليه. أمَّا بشأن الترابُط العامّ بين المسيحيَّة والسياسة، فإنَّ وضعنا أكثرُ دقَّةً. فنحن يقيناً لا نريد للبشر أن يسمحوا لمسيحيَّتهم بالتَّغلغُل في حياتهم السياسيَّة، لأنَّ إقامة مجتمع عادلٍ حقّاً ستكون كارثة رهيبة. وفي المقابل، نريد فعلاً، ونُريد جدّاً، أن يُعامِل البشر المسيحيَّة كوسيلة، ومن بابٍ أولى بالطبع كوسيلةٍ لتقدُّمهم الذاتيّ، ولكنْ في حال إخفاق ذلك، كوسيلةٍ لأيِّ شيء، حتَّى للعدالة الاجتماعيَّة. فالأمر الواجبُ فَعلُه هو جعْل الإنسان في البداية يُقدِّر العدالة الاجتماعية بوصفها شيئاً يطلبه العدوّ، ثُمَّ دفعُه إلى المرحلة التي فيها يُقدِّر المسيحيَّة لأنَّها قد تُنتج العدالة الاجتماعيَّة. ذلك أنَّ العدوَّ لن يُستخدم كوسيلةِ راحة. فالأفراد أو الأُمم الذين يحسبون أنَّهم يستطيعون إحياء الإيمان في سبيل تكوين مجتمع صالح يُمكِنهم بالمِثل أن يحسبوا أنَّهم يستطيعون استخدام دَرَج السماء كطريقٍ مختصر إلى أقربِ صيدليَّة. ومن حُسن حظِّنا أنَّ من السهل تماماً تملُّق الآدميِّين وراءَ هذا المُنعطَف اليسير. فاليوم بالذّات عثرتُ لدى كاتبٍ مسيحيٍّ على فِقرةٍ يُوصي فيها بنُسخته الخاصَّة عن المسيحيَّة على أساسِ "أنَّ إيماناً نظير هذا فقط يمكن أن يظلَّ حيّاً بعد موت حضاراتٍ قديمة وولادة مدنيَّاتٍ جديدة." أترى الصَّدع البسيط؟ "صدِّق هذا الإيمان، ليس لأنَّه صحيح، بل لسببٍ آخر، فهو يدوم." تلكَ هي اللعبة!

عمُّكَ المُحِبُّ
خُربُر

٣٤

عزيزي عَلقَم،

تراسلتُ مؤخَّراً مع أَلِيفبُوزنَتَن، المسؤولِ عن فتاةٍ مريضك الشابَّة، وقد بدأتُ أرى الصَّدع في درعها. إنَّه رذيلةٌ يسيرة غير بارزة تشترك فيها تقريباً مع جميع النساء اللواتي نشأن في دائرة مُتنوِّرة يوحِّدها مُعتقَدٌ محدَّد بوضوح، تكمن في افتراض لا يكاد يتزعزع أنَّ الغريبات اللواتي يُخالِفنهنَّ في ذلك المعتقَد هنَّ في الحقيقة مُفرطات الغباوة والسخافة. إنَّما الرجال الذين يُقابِلون هؤلاء الغريبات عادةً لا يرون ذلك الرأي، وثقتُهم — إن كانوا واثقين — هي من نوع مختلف. أمَّا ثقتُها التي تحسب أنَّها ناجمةٌ عن الإيمان فهي بالحقيقة تعود في جزءٍ كبيرٍ منها إلى اللَّون الذي اكتسبَته من محيطها. وهي في الواقع لا تختلف كثيراً عن تلك القناعة الراسخة التي كان من شأنها أن تشعر بها في سنِّ العاشرة بأنَّ نوع سكِّين السمك المُستعمَل في بيت أبيها كان النوعَ المناسب أوِ السويَّ أو "الحقيقيَّ"، في حين أنَّ السكاكين التي تستعملها العائلات المُجاوِرة لم تكن "سكاكين سمك حقيقيَّة" على الإطلاق.[١] والآن،

١ ترى هذه الفتاة أنَّ الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي تعتقده والذي يجب أن يكون بلون الإيمان الذي لديها، وإلا فإنَّ كل لون آخر من الإيمان هو، برأيها، ليس إيماناً.

فإنَّ عنصر الجهالة والسذاجة في ذلك كلِّه كبيرٌ جدّاً، وعنصر الكبرياء الروحيَّة ضئيلٌ جدّاً، بحيث لا يتوافر لنا إلاَّ أمَلٌ يسير من جهة الفتاة نفسها. ولكنْ هل فكَّرت كيف يمكن استغلال الوضع للتأثير في مريضك بالذات؟

إنَّ المبتدئ هو مَن يُبالغ دائماً. فالرجل الذي ارتقى حديثاً في المجتمع يكون بالغ التأدُّب، والعالم الشابّ مُتحذلِقاً. وفي هذه الدائرة الجديدة، مريضُك مُبتدئ. فها هَو هناك كلَّ يوم، حيث يُقابِل حياةً مسيحيَّة من نوعيَّة لم يتصوَّرها قطُّ من قبل، ويرى ذلك كلَّه من خلال زجاجٍ مسحور، لأنَّه واقعٌ في الحبّ. وهو متشوِّق لمحاكاة هذه النوعيَّة (بل إنَّ العدوَّ يوصيه بذلك حقّاً). فهل يَسعُك أن تدفعه إلى مُحاكاة تلك النقيصة في خليلته وإلى تضخيمها، بحيثُ إنَّ ما كان عَرَضيّاً لديها يصيرُ لديه أقوى الرذائل وأجملها، أعني الكبرياء الروحيَّة؟

ثمَّ إنَّ الظروف تبدو مؤاتيةً على نحوٍ مثالي. فالدائرة الجديدة التي يُلفي نفسه فيها دائرةٌ يُغرى بأن يكون فَخوراً بها لعدَّة أسبابٍ خلاف مسيحيَّتها. ذلك أنَّها مجتمع أفضل ثقافةً وأكثر عقلانيَّةً وأوفر مقبوليَّةً من أيِّ مجتمع سبق أن لقِيَه حتَّى الساعة. كذلك أيضاً يكتنفه شيءٌ من التوهُّم بشأن مكانته الخاصَّة فيه. فتحتَ تأثير "الحبّ" قد يكون ما زال يحسب نفسَه غيرَ جدير بتلك الفتاة، إلاَّ أنَّه يكفُّ بسرعة عن حسبان نفسه غير جدير بالآخرين. وليس لديه أيَّة فكرة عن مقدارِ ما يُغفَر له لأنَّهم ذوو محبَّة ومودَّة وقابلون لأنْ ينفعوه أجزل نفع ما دام الآن واحداً من العائلة. وهو لا يحلم أن يكون أيُّ مقدارٍ من حديثه وعددٍ من آرائه مُعتبَراً عندهم كمجرَّد أصداءٍ لِما لديهم. وما هو أقل أيضاً ارتيابُه في أن مقدار البهجة التي تأتيه من هؤلاء القوم عائدٌ إلى الفتنة الشهوانيَّة التي تنشرها الفتاة – بالنسبة إليه – على كلِّ ما يحيط بها. فهو يظنُّ

أنَّه يستحسن أحاديثهم ونمط حياتهم بسبب شيءٍ من الانسجام بين حالتهم الروحيَّة وحالته هو. لكنَّ الواقع أنَّهم مُتقدِّمون عليه بأشواط بعيدة، حتَّى إنَّه لو لم يكن واقعاً في الحبّ لَحيَّره ونفَّره فعلاً كثيرٌ ممَّا يقبله الآن. فهو أشبه بكلبٍ سلوقيّ[٢] قد يتصوَّر أنَّه يفهم الأسلحة الناريَّة لأنَّ غريزة الصَّيد لديه وحبَّه لسيِّده يُتيحان له أن يستمتع بيومٍ حافل بإطلاق النار!

ها هنا فرصتك. فبينما يتوسَّل العدوُّ الحبَّ الجنسيَّ وبعض الأشخاص المُسِرِّين جدّاً والمُتقدِّمين كثيراً في خدمته، مُجتذِباً الهمجيَّ الشابَّ إلى مُستوياتٍ عالية لم يكن ممكناً أن يبلغها لولا ذلك، يجب أن تجعله يشعر أنَّه يجد مُستواه الخاصَّ: أي أنَّ هؤلاء القوم هم من "النوع الذي يروقه" وأنَّه بحلوله بينهم قد حلَّ في بيته. وحين يتحوَّل عنهم إلى مجتمع آخر فسوف يجده مُملاً، جُزئيّاً لأنَّ أيَّ مجتمع تقريباً في متناول يده هوَ في الواقع أقلُّ إمتاعاً بكثير، ولكنْ أيضاً لأنَّه سيفتقد فتنة تلك الشابَّة. فيجب عليك تعليمُه أن يُخطئ في حسبان التعارُض بين الدائرة التي تُبهِجه والدائرة التي تُزعِجه أنَّه التعارُض بين المؤمنين وغير المؤمنين. يجب أن تجعله يشعر (ويُستحسَن ألاَّ يُعبِّر عن شعوره بالكلام) "كم نحن المسيحيِّين مختلفون." وبمفهوم "نحن المسيحيِّين" يجب بالحقيقة أن يعني – إنَّما بغير أن يدري – "جماعتي". وبمفهوم "جماعتي" يجب ألاَّ يقصد "الأشخاص الذين في محبَّتهم وتواضُعهم قبلوني"، بلِ "الأشخاص الذين أُصادِقهم بحُكم الحقّ".

إنَّ النجاح في هذا المجال يتوقَّف على إرباك زبونك وتشويشه. فإن حاولتَ أن تجعله فخوراً على نحوٍ علنيٍّ استعراضيٍّ بكونه مسيحيّاً مؤمناً، فإنَّك ستُخفِق على الأرجح؛ إذ إنَّ تحذيرات العدوِّ من ذلك

٢ الكلب السلوقي نوع من كلاب الصيد.

أشهر من أن تُذكَر. أمَّا إذا جعلتَ فكرة "نحن المسيحيِّين" تزول بمُجمَلها، وجعلتَه راضياً بشأن "جماعته" وحسب، فإنَّك لن تنتج لديه كبرياء روحيَّة حقيقيَّة بل مجرَّد خُيَلاء اجتماعيَّة ليست، عند المقارنة، سوى خطيَّةٍ يسيرة تافهة منمَّقة. لذا ينبغي لك أن تُبقيَ تهنئةً خبيثة للذات مُختلِطةً بجميع أفكاره ولا تدَعه أبداً يطرح السؤال: "على أيِّ شيءٍ بالتحديد أنا مُهنّئٌ ذاتي؟" إنَّ فكرة الانتماء إلى حلقةٍ مُغلَقة، أو الوجود في قلب سرٍّ ما، عذبةٌ جدّاً لديه. فاعزفْ على هذا الوتر. وباستعمال تأثير هذه الفتاة، حينَ تكون في أسخف حالاتها، علِّمه أن يكتسب حسَّ تسلية حيال الأمور التي يقولها غير المؤمنين. وربَّما يَثبت هنا نَفع بعض النظريَّات التي قد يَلقاها في الأوساط المسيحيَّة العصريَّة، أعني تلك النظريَّات التي تُعلِّق آمال المجتمع على نوع من دائرةِ "وُكَلاء" داخليَّة: هم حفنةٌ من الثيوقراطيِّين المثقَّفين. لا شأنَ لك في كون تلك النظريَّات صحيحةً أو خاطئة. فالأمر المهمُّ هو أن تجعل المسيحيَّة ديانة أسرار، يشعرُ فيها بأنَّه واحدٌ من المُطَّلعين.

رجاءً، لا تحشُ رسائلك بالهُراء عن الحرب الأُوروبية. لا شكَّ أنَّ حصيلتها النهائيَّة مهمَّة، ولكنَّ تلك مسألةٌ تخصُّ القيادة العُليا. ولستُ مهتمّاً البتَّة بمعرفة عدد الأشخاص الذين قُتِلوا بالقنابل في إنكلترا. أمَّا حالتهم الذهنيَّة التي ماتوا وهم فيها، فأمرٌ يمكنني أن أعرفه من المكتب في هذا الطرف. إلاَّ أنَّني علمتُ فعلاً أنَّهم كانوا سيموتون في وقتٍ من الأوقات. فأرجو أن تشغل ذهنك بعملك.

عمُّكَ المُحِبّ
خُربُر

٢٥

عزيزي عَلقَم،

إنَّ المشكلة الحقيقيَّة في الجماعة التي يعيش مريضُك معها هي أنَّها مسيحيَّة صِرف. لدى جميع أفرادها مصالحُ شخصيَّة طبعاً، ولكنَّ الرباط الذي يجمعهم يبقى هو المسيحيَّة المُجرَّدة. فما يُطلبُ منّا، إذا صار الناس مسيحيِّين يوماً، هو أن نُبقيَهم في الحالة الذهنيَّة التي أُسمِّيها "المسيحيَّة وكذا". وأنت على عِلم بما أعنيه: المسيحيَّة والأزمة، المسيحيَّة وعلم النفس الجديد، المسيحيَّة والنظام الجديد، المسيحيَّة والشفاء المُعجزيّ، المسيحيَّة والبحث الطبيعيّ، المسيحيَّة والنباتيَّة، المسيحيَّة وإصلاح الإملاء. فإن كان لا بدَّ من أن يصيروا مسيحيِّين، فليكونوا على الأقلِّ مسيحيِّين لديهم فارق. فبدل الإيمان ذاته تعال بطرازٍ أو نمطٍ ما ذي صبغةٍ مسيحيَّة. استغلَّ رعبهم حيال الشيء القديم نفسه.

والرعبُ حيال الشيء القديم نفسه واحدٌ من أهمِّ الأهواء التي أنتجناها في القلب البشريّ، وهو مصدرٌ لا ينضب للبِدَع في الدين، والحماقة في المشورة، والخيانة في الزواج، وقلَّة الوفاء في الصداقة. إنَّ الآدميين يعيشون في الزمان، ويختبرون الحقيقة على التَّوالي. وعليه،

فحتَّى يختبروا منها قسطاً كبيراً، يجبُ أن يختبروا أشياءَ مختلفة كثيرة. بكلمة أُخرى، يجب أن يختبروا التغيير. وبما أنَّهم يحتاجون إلى التغيير، فإنَّ العدوَّ (لكونه في تصميمه على مذهب المتعة) قد جعل التغيير مُمتِعاً لهم، تماماً كما جعل الأكل مُمتِعاً. ولكنْ لكونه لا يريد لهم أن يجعلوا التغيير – شأنُه شأنُ الأكل – غايةً في ذاته، فقد وازَنَ حبَّ التغيير فيهم بحبٍّ للثبات. وقد خطَّط لإرضاء كِلا الذَّوقَين معاً في العالَم الذي صنعه، بتوحيد التغيير والثبات، وهو ما نُسمِّيه الإيقاع. فهو يُعطيهم الفصول، حيث يختلف كلُّ فصلٍ عن الآخر في حين تبقى السنة هي هي، وهكذا يشعرون دائماً بأنَّ الربيع أمرٌ جديدٌ رغم أنَّه دائماً تكرارٌ لموضوعٍ قديمٍ جدّاً. وهو يُعطيهم في كنيسته سنةً روحيَّة واحدة، فينتقلون من صَومٍ إلى عِيد، ولكنَّه العيد نفسه كما سبق.

والآن، فكما ننتقي متعةَ الأكل ونبالغ فيها لإحداث النَّهَم، هكذا نأخذ هذا الاستحسان الطبيعيَّ للتغيير ونُفسِده ليصير تطلُّباً للابتداع المُطلَق المستمر إلى ما لانهاية. وهذا التَّطلُّب هو هدف صنعتنا الإجماليَّة. فإن أهملنا واجبنا، فلن يرضى البشر فقط بل سيُسَرُّون جدّاً حيال امتزاج ما هو جديد وما هو مألوف في زهور اللَّبَن الثلجيَّة في كانون الثاني (يناير) الحاليّ، وشروق الشمس الحاليّ، وحلوى الميلاد في العام الحاليّ. وسيكون الأولاد – إلى أن نقطع في تعليمهم شوطاً بعيداً – سُعَداء جدّاً بجولة ألعابٍ موسميَّة تعقب فيها لعبةُ الغُمَّيضةِ لعبةَ اللُّقيطةِ بانتظام كما يعقبُ الخريفُ الصيف. فإنَّما بمجهوداتنا المتواصلة فقط نُبقي تطلُّب التغيير اللانهائيّ، أو غير المتواتر، على مستواه الأرفع.

ثُمَّ إنَّ رغبةَ التغيير هذه قيِّمةٌ من وجوه شتَّى. فهي أوَّلاً تُقلِّص المتعة فيما تُضاعِف الشهوة. ذلك أنَّ متعة الابتداع والجِدَّة، في طبيعتها، عرضةٌ أكثر من سواها لقانون تناقُص الغلَّة. كما أنَّ الاستمرار في

الابتداع يُكلِّف مالاً، بحيث إنَّ الرغبة فيه تُحدث جشعاً أو شقاءً، أو كليهما. وأيضاً، كلّما زادت هذه الرغبةُ ضراوةً، كانت أسرع حتماً في التهام جميع مصادر المتعة البريئة، و في الانتقالِ إلى تلك التي يُحرِّمها العدوّ. وهكذا، فبإضرام الرُّعب حيال الشيء القديم نفسه جعلْنا الفنون مثلاً، منذ عهدٍ قريب، أقلَّ خطراً علينا مما كانت على الأرجح في أيِّ وقتٍ مضى، حيث الفنَّانون "الكبار" و"الصغار" على السواء يندفعون الآن يومياً إلى وجوهٍ من الإفراط، جديدةٍ ومتجدِّدة، في الفجور والطَّيش والقساوة والكبرياء. أخيراً، لا بدَّ لنا من استغلال الرغبة في الجِدَّة والابتداع إذا شئنا أن نُنتج أزياءً أو مُوضَة.

إنَّ منفعة الأزياء في التفكير هي تشتيتُ انتباه البشر عن الأخطار الحقيقية المُحدِقة بهم. فنحن نُوجِّه الصَّيحة العالية السائدة في كلِّ جيل ضدَّ تلك الرذائل التي تُشكِّل أقل خطر على الرذائل، ونُركِّز استحسانها على الفضيلة القُربى من تلك الرذيلة التي نحاول أن نجعلها علَّةً مستوطِنة. واللعبة هي أن نراهم يتراكضون جميعاً حاملين المطافئ كلَّما حصل طوفان، ويزدحمون كلُّهم في جانب السفينة الذي باتت حافته العُليا تحتَ الماء تقريباً. وعليه، فإنَّنا نجعل الزيَّ السائد هو أن نفضح أخطار الحماسة حين يكونون كلُّهم في الواقع صائرين دُنيويِّين وفاترين. وبعد ذلك بقرنٍ واحد، حين نُصيِّرهم بالفعل مُعجَبين جميعاً بالشاعر بايرون وسكارى بالعواطف، تُوجَّه الصيحة العالية السائدة ضدَّ أخطار "الفهم" المجرَّد. فالأجيال القاسية تُستنفَر للوقوف في وجه العاطفيَّة المُفرِطة، وتلك العواطف اللامبالية والمتقاعسة للوقوف في وجه العواطف المُحترَميَّة، وتلك الفاسقة للوقوف في وجه الطهوريَّة. وكلَّما كان جميع الناس مُسرعِين فعلاً لأنْ يكونوا عبيداً أو طُغاة، جعلنا الحُرِّيَّة أكبرَ غول.

غير أنَّ الانتصار الأعظم هو أن نُرفِّع هذا الرُّعب حيال البضاعة الواحدة إلى مستوى فلسفة مُتَّبعة، بحيث تعزِّز التفاهة في الفكر الفسادَ في الإرادة. ها هُنا يظهر في الساحة الطابعُ التطوُّريّ أو التاريخيّ العامّ في الفكر الأوروبيّ الحديث (وهو من صُنعِنا جزئيّاً) بشكلٍ مفيدٍ جدّاً. إنَّ العدوَّ تروقُه التفاهات. فبالنسبة إلى نمط سلوكٍ مقترح، يُريد من البشر – بقدْر ما يمكنني أن أرى – أن يطرحوا أسئلة بسيطة جدّاً: أهو مُبرَّر؟ أهو مُتعقِّل؟ أهو مُمكِن؟ والآن، إذا استطعنا إبقاءهم يسألون: "أهو موافق لحركة زماننا العامّة؟ أتقدُّميٌّ هو أم رجعيّ؟ أفي هذا الاتّجاه يسير التاريخ؟"، فإنّهم سيهمِلون الأسئلة الوثيقة الصِّلة بالموضوع. ثمَّ إنَّ الأسئلة التي يطرحونها فعلاً لا جواب لها بالطبع، لأنَّهم لا يعرفون المستقبل؛ وما سيكون عليه المستقبل إنّما يتوقَّف إلى حدٍّ بعيد على تلك الخيارت التي يُناشِدون المستقبل الآن أن يُساعِدهم على اتِّخاذها. ونتيجةً لذلك، فبينما تطنُّ عقولهم في هذا الفراغ، تتوافر لنا الفرصة الفُضلى كي نندسَّ خلسةً ونعطفهم إلى السلوك الذي عزمنا نحن عليه. وقد تمَّ حتَّى الآن إنجازُ عملٍ عظيم. ففي ما مضى عرفوا أنَّ التغييرات آلت إلى الأفضل، وبعضها إلى الأسوأ، كما أنَّ غيرها لم تُقدِّم ولم تؤخِّر. إلاّ أنَّنا قد أزلنا هذه المعرفة في معظمها. فبدلاً من النعت الوصفيّ "غيرُ مُتغيِّر" أتينا بالنعت العاطفيّ "راكد". ودرَّبناهم على التفكير في المستقبل كما لو كان أرضاً موعودة يبلغها الأبطال الموهوبون، وليس كشيءٍ يصل إليه كلُّ واحد بمعدَّل ستِّين دقيقة في الساعة، مهما فعل، وأيّاً كان.

عمُّك المُحبّ
خُربُر

٢٦

عزيزي عَلقَم،

نعم! إنَّ فترة التودُّد هي الوقتُ المؤاتي لزرع تلك البذور التي سوف تنمو بعد عشر سنين لتصير كُرهاً عائليّاً. فإنَّ افتِتانَ الرغبة غير المُلبَّاة يُعطي نتائجَ يمكن أن ندفع الآدميِّين إلى حسبانِها عن خطإٍ نتائجَ الوداد. استَفِد من الغموض في كلمة "الحبّ" : دَعهم يظنُّوا أنَّهم حلُّوا بالحُبّ مشاكل أزاحوها أو أجَّلوها فحسب تحت تأثير الافتِتان. فما دام هذا باقياً، فأنت تمتلكُ فرصتك لإثارة المشاكل في الخفاء وجعلها مُزمِنة.

إنَّ كُبرى المشاكل هي مشكلة "اللاأنانيَّة". لاحظ، مرَّةً أُخرى بعد، الأثرَ الباهر لسلاحنا الفيلولوجيِّ في إحلالنا مفهوم اللاأنانية السلبية بدل مفهوم المحبَّة الإيجابيِّ لدى العدوّ. فبفضل هذا، يمكنك من البداية تماماً أن تُعلِّم الآدميَّ التخلّيَ عن بعض المصالح لا لكي يسعد آخرون بحيازتها، بل كي يُتاح له أن يكون لاأنانيّاً بفقدانها. تلك هي نُقطةٌ عظيمةٌ تُكتسَب. ولنا معونة كبيرة أُخرى، حيث يكون الطرفان المعنيَّان ذكراً وأُنثى، في اختلاف النظرة بشأن اللاأنانيَّة، وهو الاختلاف الذي أنشأناه شيئاً فشيئاً بين الجنسَين. فالمرأةُ تعني باللاأنانيَّة، على نحوٍ رئيسيّ، تحمُّل العناء في سبيل الغير. أمَّا الرجل فيعني عدم تسبيب

العناء للغير. ونتيجةً لذلك، فالمرأة التي قطعت أشواطاً بعيدة في خدمة العدوّ تجعل نفسها مصدر إزعاج بمقدار أكبر من صنيع أيّ رجُل،[1] ما عدا أولئك الذين قد سيطر عليهم أبونا سيطرة كاملة. وبالعكس، فإنّ الرجل قد يعيش طويلاً في معسكر العدوّ قبل أن يقوم بمقدارٍ من العمل التلقائيّ يعادل ما قد تقوم به امرأةٌ عاديّة جدّاً كلّ يوم. وهكذا، فبينما تُفكّر المرأة في تأدية مهامّ صالحة، والرجلُ في احترام حقوق الآخرين، يستطيع كلٌّ من الجنسين — بغير أيّ نقصٍ ظاهرٍ في العقل — أن يحسب الآخر أنانيّاً على نحوٍ متطرّف، بل هو يحسبه كذلك فعلاً.[2]

وعلى رأس هذه الارتباكات والتّشويشات، يمكنك الآن أن تأتيَ بمقدارٍ قليلٍ إضافي آخر. فالافتِتان الشهوانيّ يُنتِج رضىً مُتبادَلاً يُسَرُّ فيه كِلا الطّرفين حقّاً بالاستسلام لرغبات الآخر. وهما يعلمان أيضاً أنّ العدوّ يطلب منهما درجةً من المحبّة، إذا بلغاها تنتج منها أفعالٌ مُماثلة. فيجب عليك أن تجعلهما يُرسِيان لمُجمَل حياتهما الزوجية قانوناً يتمثّل في تلك الدرجة من التضحية الذاتيّة المتبادلة التي تتبرعم حاليّاً من الافتتان بشكلٍ طبيعي؛ ولكنْ عندما يتلاشى الافتِتان لن يكون لديهما من المحبّة مقدارٌ يكفي لتمكينهما من إبداء هذه التّضحية. ولَن يريا الفخّ، بما أنّهما تحت تأثير العمى المضاعف المتمثّل باعتبار الإثارة الجنسيّة حُبّاً، وبحسبان الإثارة أمراً سيدوم وهو ما يُخطِئون به.

فإذا حدث مرّةً أنّ نوعاً من اللاّأنانيّة الرسميّة أو الناموسيّة أو الاسميّة قد أُرسيَ باعتباره قاعدةً للسلوك (قاعدة تلاشت مواردُهما العاطفيّة

١ المرأة تتحمّل العناء عن الآخرين، وهذا هو تعريفها للأنانية، ولذا تتوقع من الآخرين أن يعملوا الأمر ذاته، مما يسبب الإزعاج لهم.

٢ لأن تعريف اللاأنانية مختلف عند المرأة عن الرجل، فإن كل طرف يتوقع من الآخر تعاملاً لاأنانياً بحسب تعريفه هو.

للالتزام بها، فيما لم تنضج بعدُ مواردهما الروحيَّة اللازمة لذلك) فإنَّ أحسن النتائج السارَّة جدّاً تحدث على الأثر. فلدى التباحُث في أي عمل مُشترَك، يغدو إلزامياً أن يحتجَّ الطرف "أ" لمصلحة رغبات الطرف "ب" وضدَّ رغباته الشخصيَّة، فيما يفعل الطرف "ب" عكس ذلك. وغالباً ما يكون من المستحيل العثورُ على الرغبات الحقيقيَّة لدى أيٍّ من الطرفين. وإذا أسعفنا الحظّ، ينتهيان إلى القيام بشيء لا يريده كلاهما، في حين يشعر كلٌّ منهما بوهج من البرِّ الذاتيِّ ويُضمِر مطالبةً خفيَّة بحقٍّ تلقيه معاملةً مميَّزةً نظير اللاَّأنانيَّة المُبداة، وحقداً خفيّاً على الطرف الآخر من جرَّاء تقبُّل تضحيتِهِ بسهولةٍ ويُسر. وفي ما بعد يمكنك أن تُغامِر بما يمكن أن نُسمِّيه "وهم النزاع السخيّ". هذه اللعبة يتمُّ لعبُها على أحسن وجه بوجود أكثر من لاعبَين اثنين، مثلاً في عائلة فيها أولادٌ راشدون. فيُقترَح شيءٌ عاديٌّ، كتناول الشاي في الحديقة. ويحرص أحد أفراد العائلة على أن يُوضِح تماماً (وإن لم يكن بكثير من الكلام) أنَّه لا يرغب في ذلك، ولكنَّه بالطبع مستعدٌّ للمشاركة فيه بدافعٍ من "اللاَّأنانيَّة". وإذا بالآخرين يسحبون اقتراحهم، ظاهريّاً بداعٍ من "لاأنانيَّتهم"، ولكنْ بالحقيقة لأنَّهم لا يريدون أن يُستخدَم الواحد منهم كغَرَضٍ يُمارِس عليه المُتكلِّم الأوَّل ضروب حبِّ الغير. إلاَّ أنَّه أيضاً يأبى أن يُزحزَح عن غواية لاأنانيَّته. فيُصِرُّ على أن يقوم "بما يريده الآخرون." ويُصِرُّون هم على القيام بما يريده هو. وهكذا تُثار العواطف. وسرعان ما يُسمَع أحدُهم قائلاً: "حسنٌ جدّاً إذاً، لن أتناول الشايَ بتاتاً!"، ثمَّ ينشب تالياً شجارٌ فعليٌّ يصحبه غيظٌ مُرٌّ على كِلتا الجهتين. أتَرى كيف يتمُّ ذلك؟ لو أنَّ كلَّ جهة كانت تُناضِل بصراحة في سبيل رغبتها الحقيقيَّة الخاصَّة، لظلَّ الجميع داخل حدود العقل واللياقة. ولكنْ لأنَّ النضال ينعكس ولأنَّ كلَّ جهة تخوض معركة

الجهة الأُخرى، فإنَّ كلَّ المرارة التي تجري حقّاً من البرِّ الذاتيِّ والعناد المخذولَين والأحقاد المتراكمة على مدى السنين العشر الأخيرة تخفى على الجهتين تحت ستار "اللاأنانيَّة" الاسميَّة أو الرسميَّة لِما تفعلانه، أو على الأقلِّ تُتَّخذ عذراً لها. وبالحقيقة أنَّ كلَّ جهة مُدرِكةٌ تماماً نوعيَّة "لاأنانيَّة" الخصم الرخيصةَ والموقفَ الزائف الذي يحاول أن يُرغِمها على وقوفه، غير أنَّ كِلتَيهما تُوفَّق إلى الشعور بأنَّها بريئة ومظلومة، وليس لديها من قلَّة الأمانة أكثرُ مِمّا هو طبيعي عند الإنسان.

قال آدميٌّ عاقلٌ ذات مرَّة: "لو عرف الناس كم تسبِّب اللاَّأنانيَّة من مشاعر الاستياء، كمَا كان يوصى بها كثيراً مِن على المنابر." وأيضاً: "إنَّها امرأةٌ من النوع الذي يعيش لأجل الآخرين، وفي وسعك دائماً أن تعرف الآخرين من سيماء الانزعاج على وجوههم." هذا كلُّه يمكن البدء به حتَّى في فترة التودُّد. فإنَّ قليلاً من الأنانيَّة الحقيقيَّة من جانب مريضك غالباً ما يكون في نهاية المطاف، لأجل ضمان نفسه، أقلَّ قيمةً من بواكير تلك اللاَّأنانيَّة الناضجة والخَجِلة التي يُمكِن ذات يوم أن تتطوَّر إلى شيءٍ من ذلك النوع الذي وصفتُه. ومن الممكن أن ندسَّ خلسةً بالفعل مقداراً مّا من الزَّيف المُتبادَل، مفاجأةً مّا تَحول دون أن تُلاحِظ الفتاة دائماً إلى أيِّ مدىً بالضبط هو لاأنانيّ. فعزِّز هذه الأُمور، إنَّما قبلَ كلِّ شيء لا تدعِ الغبيَّين الغرَّين يُلاحظانها. فإذا لاحظاها، يضعان أقدامهما على طريقِ اكتشافِ أنَّ "الحبَّ" لا يكفي، وأنَّ المحبَّة مطلوبة ولم تُحرَز بعد، وأنَّه ما من قانونٍ خارجيٍّ يمكن أن يحل محلَّها. وأتمنّى لو يتمكَّن أليفبوزنَتَن من القيام بشيءٍ ما لإفساد وعي تلك الشابَّة للأُمور السخيفة.

عمُّك المُحبُّ

خُربُر

٢٧

عزيزي عَلقَم،

يبدو أنَّك تُحسِن الصنيع قليلاً جدّاً في الوقت الراهن. فاستخدامُ "حُبّ" مريضك لصرف ذهنه عن العدوّ واضحٌ طبعاً، غير أنَّك تُبدي ضعف استخدامك له حين تقول إنَّ مسألة الإلهاء وتشتُّت الذهن قد باتت الآن واحداً من الموضوعات الرئيسة في صلواته. إذ إنَّ ذلك يعني أنَّك قد أخفقتَ إلى حدٍّ بعيد. فعندما يخطر في باله هذا الالتهاء، أو أيٌّ سواه، ينبغي لك أن تُشجِّعه على دفعه بعيداً بمحضِ حُرّيةِ الإرادة، وعلى محاولة الاستمرار في صلاته المعتادة وكأنَّ شيئاً لم يكن. وما إن يَقبل الالتهاء باعتباره مشكلتَه الحاليَّة، ويضع ذلك الأمر أمام العدوّ، ويجعله الغرض الرئيس لصلواته ومُحاولاته، حتى تكونَ إذْ ذاك قد أحدثتَ ضرراً وأذىً، بدلاً مِن عمل أي خيرٍ أو شيءٍ حَسَن. فأيُّ شيء، حتّى خطيَّةٌ مّا، تكون نتيجتَه الإجماليَّةَ دفعُه إلى الاقتراب كثيراً من العدوّ، يعمل ضدَّ مصلحتنا في خاتمة المطاف.

وفي ما يلي نَهجٌ يُبشِّر بنتيجة جيِّدة. ما دام الآن واقعاً في الحبّ، فقد انبعثَت في ذهنه فكرةٌ جديدة بالسعادة الدُّنيويَّة. ومِن ثَمَّ نشأت حاجةٌ مُلِحَّةٌ في صلواته التوسُّليَّة الصِّرف، بشأن هذه الحرب وما شابهها من

أُمور. فالآنَ أوانُ إثارةِ الصعوبات الفكريَّة في موضوع صلاةٍ من هذا النوع. ويجب دائماً تشجيعُه على الروحانيَّة المُزيَّفة. فعلى الأساس الوَرِع ظاهريّاً في كون "الحمد والتواصُل مع الله هما الصلاة الحقيقيَّة"، يُمكِن أغلبَ الأحيان إغواءُ الآدميِّين للوقوع في العصيان المباشر للعدوّ، حيث قال لهم تحديداً (بطريقته المُعتادة، التافهة المبتذلة المُمِلَّة) إنَّه ينبغي لهم أن يُصَلُّوا لأجل خُبزهم اليوميِّ وشفاء مرضاهم. وسوف تُخفي عنه بالطَّبع حقيقة أنَّ الصلاة لأجل الخبز اليوميّ، مُفسَّرةً "بمعنىً روحيّ"، هي بالحقيقة توسُّليَّةٌ على نحوٍ فجٍّ وغير ناضج تماماً، كحالها بأيِّ معنىً آخر.

ولكنْ بما أنَّ مريضك قدِ التقط عدوى عادة الطاعة، وهي عادة رهيبة، فمن المُحتمَل أن يستمرَّ في مثل هذه الصلوات "غير الناضجة" مهما فعلتَ. غير أنَّك تستطيع أن تُقلِقه بالارتياب المزعج في أنَّ هذه الممارسة عبثيَّة وليس لها نتائجُ موضوعيَّة البتَّة. ولا تنسَ أن تستخدم حجَّة "الرؤوس الَّتي أربحها أنا هي أذنابٌ تخسرها أنت." فإن لم يحدثِ الأمر الذي يُصلِّي لأجله، فعندئذٍ يكون ذلك برهاناً إضافيّاً على كون الصلوات التوسُّليَّة غير فعّالة. وإذا حدث، فسيكون هو قادراً بالطبع على رؤية بعض الأسباب الطبيعيَّة التي أدَّت إلى حدوث ما يصلي لأجله، و"لذلك كان سيحصل على أيَّة حال." وهكذا تصير الصلاة المُستجابة برهاناً مقبولاً ومرفوضاً، على حدٍّ سواء، على كون الصلوات غير فعّالة.

ولمَّا كنتَ أنت روحاً، فسيصعب عليك أن تفهم كيف يقع في هذا الارتباك والتشويش. إلاَّ أنَّ عليك أن تتذكَّر أنَّه يحسب الزمن حقيقةً مُطلقة. فهو يفترض أنَّ العدوَّ، مِثلَه هو، يرى بعض الأمور باعتبارها حاضرة، ويتذكَّر أُخرى بوصفها ماضية، ويتوقَّع غيرها على

أنّها مُستقبِلة. بل إنّه حتّى لو اعتقد أنّ العدوّ لا يرى الأُمور على هذا النحو، فمع ذلك، في أعماق قلبه، يعدُّ ذلك مزيّةً خاصّة تتميّز بها طريقةُ إدراك العدوّ للأُمور: إنّه لا يعتقد (رُغم كونه قد يزعم العكس) أنّ الأمور كما يراها العدوّ هي الواقع والحقيقة! فإذا حاولتَ أن تُفسّر له أنّ صلوات البشر اليوم هي عامل من العوامل العديدة التي بها يُدوزن العدوُّ طقس الغد، فمن شأنه أن يُجيب بأنّ العدوّ إذاً يعرف دائماً أنّ البشر سيرفعون تلك الصلوات، وما دام الأمر كذلك فهم لا يُصلُّون طوعيّاً بل إنّ قيامهم بذلك أمرٌ مُقدَّرٌ لهم سلفاً. ثمّ إنّ من شأنه أن يُضيف أنّ الطقس في يوم مُعيَّن يمكن أن تُعزى أسبابه إلى خَلق المادّة أصلاً، حتّى إنّ الأمر كلَّه – على الصعيد البشريّ والصعيد المادّيّ كِلَيهما – مُفترَضٌ "من الكلمة كُن." فما ينبغي أن يقوله واضحٌ لنا طبعاً: إنّ مسألة تكييف طقس معيَّن بمقتضى صلوات معينة هي – عند الناحية البشرية والناحية المادية نُقطتَين في طريقة إدراكه الوقتيّة – مجرّدُ مظهر للمسألة الكليّة المتمثّلة في تكييف كامل العالَم الروحيّ بمقتضى كامل العالَم المادّيّ، وإنّ الخليقة بمُجمَلها ناشطةٌ في العمل عند كلّ نُقطةٍ من المكان والزّمان، أو بالأحرى إنّ نوع الإدراك الذي لدى البشر يَضطرُّهم إلى مواجهة كامل فِعل الخَلق المُتناغم الأجزاء بصفتِه سلسلةً من الحوادث المُتتالية. أمّا لماذا يعطي فِعلُ الخَلق ذاك مجالاً لحرّيّة إرادتهم فتلك مشكلةُ المشاكل، وهو السرُّ الكامن وراء هُراء العدوّ عن "المحبّة". وأمّا كيف يقوم فِعل الخلق بذلك، فليس مشكلةً على الإطلاق: لأنّ العدوّ لا يرى مُسبّقاً الآدميّين قائمين باختياراتهم الحُرّة في مُستقبَلٍ آتٍ، بل يراهم قائمين بها في حاضرِه المُطلَق.[1] ومن الجليّ

١ يقصد أن الزمن عند الله حاضر مطلق غير محدّد. فالماضي والمستقبل عنده حاضر، وليس عنده سوى الحاضر.

أنَّ مراقبة إنسانٍ مّا يقوم بعملٍ من الأعمال لا تعني جعْلَه يقوم به.

قد يُجاب بأنَّ بعض الكتَّاب الآدميِّين الفضوليِّين، وأبرزُهم بُويثيوس، قد أفشَوا هذا السرَ. ولكنْ في المُناخ العقلانيّ الذي نجحنا أخيراً بإحداثه في جميع أنحاء أُوروبا الغربيَّة، لا داعيَ لأنْ يُقلِقَك ذلك الأمر. فالمثقَّفون وحدَهم يقرأون الكُتب العتيقة، ونحن الآن قد عالجنا المُثقَّفين على نحوٍ جعلهم من بين البشر جميعاً الأقلَّ احتماليَّةً لاكتساب الحكمة من خلال قراءتهم لهذه الكتب. وقد فعلنا هذا بغَرْسنا في الأذهان وجهة النظر التاريخيَّة. وبعبارة مختصرة، تعني وجهةُ النظر التاريخيَّة أنَّه حين يُواجِه المُثقَّف أيَّة جُملة عند كاتبٍ قديم يكون السؤال الوحيد الذي لا يطرِحه أبداً هو هل هي صحيحةٌ. فهو يسأل عمَّن أثَّر في الكاتب القديم، وإلى أيّ مدىً تتوافق تلك الجمُلة مع ما قاله الكاتبُ عينُه في كُتبٍ أُخرى، وأيَّةُ مرحلة من مراحل تطوُّر الكاتب — أو تاريخ الفكر العامّ — تُمثِّلها الجملة، وكيف أثَّرت تلك الجملة في كُتّابٍ متأخِّرين، وكم أُسيءَ فهمُها (ولا سيَّما من قِبَل زُملاء المُثقَّف)، وماذا كان مجرى النقدِ العامُّ بشأنها آخِرَ عشر سنين، وما هي "حالةُ المسألةِ الراهنةُ"؟ أمَّا أن تحسب الكاتب القديم مصدراً ممكناً للمعرفة — أي أن تتوقَّع أنَّ ما قاله ذلك الكاتب يمكن على وجه الاحتمال أن يُعدِّل أفكار القارئ أو أفعاله — فهذا أمرٌ ينبغي أن يُرفض باعتباره ساذجاً بصورةٍ لا توصَف. وبما أنَّنا لا نستطيع أن نخدع الجنس البشريَّ بكامله كلَّ حين، فمن المهمّ أهميَّةً قُصوى إذاً أن نعزل كلَّ جيلٍ عن جميع الأجيال الأُخرى. فحيث تُقيم الثقافة تبادُلاً فكريّاً حُرّاً بين الأجيال، يكمن دائماً الخطر بأنَّ الأخطاء التي يتميَّز بها جيلٌ مّا تُصحِّحها الحقائق التي يتميَّز بها جيلٌ آخر. ولكنْ بفضل أبينا ووجهة النظر التاريخيَّة، ذلك الفضل المشكور، بات عُلَماء عُظماء الآن لا يتعلَّمون أو يتغذون إلا

قليلاً من الماضي، مَثَلهُم مَثلُ الميكانيكيِّ الأكثر غباوةً والذي يعتقد أنَّ "التاريخ هُراء".

عمُّك المُحِبُّ
خُربُر

٢٨

عزيزي عَلقَم،

لمَّا طلبتُ منك ألاَّ تحشوَ رسائلك بالهُراء في شأن الحرب، عنيتُ بالطَّبع أنَّني لم أرغب في أن تُقدِّم لي حماستك الصبيانيَّة نوعاً ما عن مصرع الناس وتدمير المُدن. فأريد تقاريرَ وافية عن الحرب فقط في علاقتها بحالة مريضك الروحية. ومن هذه الناحية تبدو بليدَ الذهن على نحو استثنائيّ. لذلك أعلمتَني بابتهاج أنَّ ثمَّة أسباباً تدعو إلى توقُّع غاراتٍ جويَّة كثيفة على المدينة التي يُقيم فيها ذلك المخلوق. وهذا مَثل صارخ على أمرٍ سبق أن شكوتُ منه: نُزوعِكَ إلى نسيان جوهر هدفنا في غمرة استمتاعك الآنيّ بمعاناة الآدميِّين. ألا تدري أنَّ القنابل تقتل البشر؟ أم لا تُدرِك أنَّ موت المريض، في الوقت الراهن، هو بالتحديد الأمرُ الذي ينبغي لنا أن نتجنَّبه؟ لقد أفلت من الأصدقاء الدُّنيويِّين الذين حاولتَ أن تُوقِعه في شَرَكِهم. وقد "وقع في حُبّ" فتاة مسيحيَّة مؤمنة جدّاً، وهو وقتيّاً في مِنعةٍ من هَجَماتك على عفَّته. ثُمَّ إنَّ مختلَف أساليبِ إفسادِ حياته الروحيَّة، تلكَ التي عكفنا على تجريبها حتَّى اليوم، لم تنجح حتَّى الآن. ففي اللحظة الحاضرة، فيما تأثيرُ الحربِ الكاملُ يقترب أكثرَ، وآمالُ المريض الدُّنيويَّة تشغل مكاناً أدنى

نسبيّاً في ذهنه المليء بعمله الدفاعيّ، والذي تحتلّه الفتاة، وهو مُضطَرٌّ إلى الاهتمام باحتياجاتِ إخوانه أكثرَ ممّا فعل يوماً من قبلُ ويَستحسِن ذلك أكثرَ ممّا توقع، و"يعيش خارج نطاق ذاته" كما يقول الآدميُّون، ويتقدَّمُ كلَّ يوم في مجال الاتّكال على العدوّ، سنخسرُه حتماً على الأرجح إذا قُتِل الليلة. وهذا الأمر واضحٌ جليّاً للغاية بحيثُ أخجل أن أكتب إليك عنه. وإنّي أتساءل أحياناً بشأنكم، أنتمُ الشياطينَ الصغار، ألا تُكلَّفون واجبَ الإغواء وقتاً أطول من اللازم حتّى تتعرَّضوا لشيءٍ من الخطر بأن تلتقطوا عدوى عواطف الآدميِّين الذين تشتغلون بينَهم والقِيَم التي يعتنقونها. فهم بالطبع ميّالون إلى حسبان الموت على أنّه الشرُّ الرئيسَيُّ، والبقاءِ على أنّه الخيرُ الأعظم. ولكنْ هذا هو واقعُ حالِهم لأنّنا نحن علّمناهم أن يفعلوا هكذا. فلا نُصابَنَّ بعدوى دعايتنا بعينها! وأنا أعرف أنّه يبدو لك غريباً الآن أن يكون هدفك الرئيس حاليّاً هو الأمر عينه الذي يُصلّي لأجله مريضُك وحبيبتُه ووالدتُه، أعني سلامته الجسديَّة. لكنَّ الحال هكذا، إذ ينبغي لك أن تُعنى بحمايته كحدقة عينك. فإذا مات الآن، خَسِرتَه. وإذا نجا من الحرب، يتوافر لك أملٌ دائماً. لقد حماه العدوُّ منك عبر أوّلِ موجةٍ كبيرة من التجارب. ولكن إذا تيسَّر فقط إبقاؤه حيّاً، فسيكون الوقتُ نفسُه حليفَك. فإنَّ السنين الطويلة القاتمة الرتيبة التي تشهد يُسرَ الكهولة أو عُسرَها هي المُناخ المؤاتي جدّاً لشنِّ حملاتك. أمَا ترى أنّه يصعب جدّاً على تلك المخلوقات أن تُثابِر؟ فإنّ روتينَ العُسر أو الضيق، وتآكُلَ ما يحبُّه الشباب وآمالِه تدريجيّاً، واليأسَ المستكين (الذي نادراً ما يشعرون به بصفتِهِ ألماً) من إمكانيَّة الانتصار على التجارب المزمنة التي هزمناهم بها مراراً وتكراراً، والكآبةَ التي نُحدِثها في حياتهم مع الاستياءِ الغامض والذي نُعلِّمهم أن يستجيبوا لها بهذا الاستياء، هذه كلّها توفِّر فُرصاً عجيبة لإرهاق نفسٍ من النفوس

بالإنهاك المتواصل. وفي المقابل، إذا كانت سنو الكهولة حافلة بالنجاح، يكون موقعُنا أقوى أيضاً. فالنجاح يوثّق أواصر الإنسان بالعالَم الحاضر. إذ يشعر الإنسانُ أنَّه "واجدُ مكانَه فيه" في حين أنَّ العالم بالحقيقة هو الواجد مكانه فيه هو. فإنَّ سُمعَتَه المُتنامِية، وحلقةَ مَعارِفه الآخذةَ في الاتساع، وإحساسَه بأهمّيته الذاتيَّة، والضغطَ المُتعاظِمَ عليه من قِبَل العَمَل الذي يَستغرِق فيه ويَروقُه، تُعزّز لديه شعوراً بكونه "في بيته ومُرحَّب به على الأرض: الأمرُ الذي نُريده تماماً. وستُلاحِظ أنَّ الأصغر سنّاً يكونون على العموم أقلَّ كُرهاً للموت من الكهول والشيوخ.

والحقُّ أنَّ العدوَّ – إذْ قرَّر على نحو غريب أن يكون مصيرُ هؤلاء الحيوانات الصِّرف هو الحياةَ في عالَمه الأبديِّ الخاصّ – قد حماهم بطريقةٍ فعّالة جدّاً من خطر الشعور بأنَّهم "في بيتهم" في أيِّ مكانٍ آخر غير عالمه الأبدي. لذلك السبب يجب علينا أغلبَ الأحيان أن نتمنَّى لمرضانا طول العمر. فإنَّ سبعين سنةً ليست مُدَّة أطول من اللازم للقيام بالمهمَّة الصعبة المتمثِّلة في حَلِّ وُثُق نفوسهم من الارتباط بالسماء وتوطيد ارتباطٍ متين بالأرض. وبينما يكونون في طور الشباب، نجدهم دائماً ينحرفون فجأةً عن الخطِّ السليم. ولئنِ احتلْنا وسعينا لإبقائهم في جهلٍ من جهة الدِّين الجليّ، فإنَّ الرياح المتقلّبة الهابَّة من الخيال الجامح والموسيقى والشِّعر – لمُجرَّد رؤية وجه فتاة أو سماع شدوِ طائر أو مشاهدة أُفقٍ خلّاب – تعمل دائماً على تقويض كلِّ ما بَنيناه. فهُم لن ينكبُّوا دائماً على التقدُّم الدُنيويّ، والصَّلاتِ الحَذِرة، وسياسة الأمان أوّلاً. ذلك أنَّ شوقهم إلى السماء مُتأصِّلٌ فيهم جدّاً بحيثُ إنَّ أُسلوبنا الأفضل، في هذه المرحلة، لربطهم بالأرض يكون بجعلهم يعتقدون أنَّ الأرض يمكن أن تتحوَّل سماءً، في وقتٍ من الأوقات الآتية، بواسطة السياسة أو تحسين النَّسل أو "العلوم" أو عِلم النفس، وما شابه ذلك.

فالدُّنيويَّة الحقيقيَّة هي صنيعةُ الوقت، تُساعِدها بالطبع الكبرياء، إذ نُعلِّمهم أن يصفوا الموت الزاحف إليهم باعتباره أمراً صالحاً مقبولاً، أو نُضجاً، أو خبرة. وعلى فكرة، فإنَّ الخبرة، بالمعنى الذي نُعلِّمهم أن يُضفوه عليها، كلمةٌ نافعة أقصى نفع. حتَّى إنَّ فيلسوفاً بشريّاً كبيراً كاد يُفشي سرَّنا حين قال "إنَّ الخبرة هي أُمُّ التوهُّم" حيث يتعلَّق الأمر بالفضيلة. ولكنْ بفضل تغيير في الزيِّ السائد، وأيضاً بفضل وجهة النظر التاريخيَّة طبعاً، جعلْنا كتابه حميداً إلى أبعد حدّ.

أمَّا كم الوقتُ ثمينٌ عندنا فأمرٌ يمكن قياسُه بحقيقة كون العدوِّ يسمح لنا فقط بمِقدار ضئيل جدّاً منه. ثُمَّ إنَّ أغلبيَّة الجنس البشريِّ تموت في الطفولة؛ ومن الناجين يموتُ عددٌ كبير في سنِّ الشباب. فبديهيٌّ أنَّ الولادة البشريَّة مُهمَّة في نظره بشكلٍ أساسي بصفتِها مؤهِّلاً للموت البشريّ، في حين أنَّ الموت مُهِمٌّ في نظره فقط باعتباره الباب المُفضي إلى نوع الحياة الآخر. ومسموحٌ لنا أن نشتغل فقط في أقلِّيَّة مُنتقاة من الجنس البشريّ، لأنَّ ما يُسمِّيه الأدميُّون "حياةً سويَّة" هو الاستثناء. فالظاهر أنَّه يريد لبعضٍ (إنَّما لقلَّةٍ قليلة فقط) من الحيوانات البشريَّة التي سيُؤهِل بها السماء أن يجتازوا اختبار مقاومتهم لنا في أثناء حياةٍ على الأرضِ تبلغ ستِّين أو سبعين من السِّنين. حسناً، هنالك تكمن فرصتُنا. فكلَّما كانت فرصتنا أقصر، وجب علينا أن نستخدمها استخداماً أفضل. ومهما عملتَ، فأبقِ مريضك سالماً بقدر استطاعتك.

عمُّك المُحِبُّ

خُربُر

٢٩

عزيزي عَلقَم،

إذ بات مؤكَّداً الآن أنَّ الآدميِّين الألمان سيقصفون بقنابلهم مدينة مريضك، وأنَّ واجباتِه ستُبقيه في خِضَمِّ الخَطَر، فعلينا أن ننظر مليّاً في سياستنا. أعلَينا أن نصوِّب سهامنا إلى الجبن، أم إلى الشجاعة مع الكبرياء التي تعقبها، أم إلى كُره الألمان؟

حسناً، يُخيَّل إليَّ أنَّه لا خيرَ في محاولة جعْله شُجاعاً. فإنَّ دائرة البحوث عندنا لم تكتشف بعدُ كيف نُنتج أيَّة فضيلة (وإن كان النجاح متوقَّعاً كلَّ حين). وهذه عقبةٌ كأداء. فحتَّى يكون الإنسان شرِّيراً على نطاقٍ واسع ونحوٍ فعّال، يحتاجُ إلى فضيلةٍ مّا. تُرى، ماذا كان ممكناً أن يكونَ أتِّيلا[1] بغيرِ شجاعته، أو شايلُك[2] بغير إنكار الذات في ما يتعلَّق بنوازع الجَسَد؟ ولكنْ بما أنَّنا لا نستطيع نحنُ أنفسُنا أن نُوفِّر هذه الخصال، يمكننا فقط أن نستخدمها كما يوفِّرها العدوّ. وهذا يعني أن

١ أتيلا: ملك الهون في القرن الخامس الميلادي. قام باجتياحٍ ناجح للإمبراطورية الرومانية. عُرِف بشجاعتِه.

٢ شايلُك: شخصيته من مسرحيةٍ لشكسبير. كان يمثِّل شخصية مرابٍ لا يعرف الرحمة.

نترك له موطئ قدم من نوع مّا لدى أولئك الآدميِّين الذين كان من شأننا، لولا ذلك، أن نجعلهم خاصَّةً لنا بشكلٍ مضمون تماماً. ترتيبُ غيرُ مُرضٍ للغاية، ولكنَّ لي ملءَ الثقة بأنَّنا سنتعلَّم ذات يوم أن نفعل ما يكون أفضل ونحقّق نتائج أفضل.

أمّا الضغينة فيُمكِننا تَولّي أمرها. ذلك أنَّ توتُّر الأعصاب البشريَّة عند الضجيج والخَطَر والإرهاق يجعل الآدميِّين عرضةً لأيَّة عاطفةٍ عاصفة، والمسألة فقط مسألةُ توجيه هذا التأثُّر داخلَ القَنَوات الصحيحة والمناسبة. وإذا قاوم ضميرُ المريض، فشوِّشْ ذهنَهُ. دَعه يقُل إنَّه يشعر بالضغينة ليس من أجل مصلحته الشخصيَّة بل لأجل خير النساء والأولاد، وإنَّ المسيحيَّ يُوصى بأن يُسامح أعداءَه هو، لا أعداءَ أشخاصٍ آخرين. بعبارة أُخرى، دَعه يعتبر نفسه مُتَماهِياً[3] مع النساء والأولادِ بما يكفي لأنْ يشعر بالضغينة نيابةً عنهم، لكنْ غيرَ مُتَماهٍ معهم بما يكفي لأنْ يعتبر أعداءَهم بمثابة أعداءٍ له، وبالتالي لا يكون هؤلاء الأعداء أشخاصاً يمكن أنّ يسامحهم هو.

غير أنَّ الضغينة تكون على أحسن حال حين تقترن بالخوف. فبينما الجبانةُ وحدَها، من بينِ جميع الرذائل، مؤلِمةٌ إيلاماً محضاً — لكونها رهيبةً جدّاً سواءٌ في توقُّعها أو في الشعورُ بها أو في تذكُّرها، فإن الضغينة لها مباهجها الخاصَّة. ولذلك فهي غالباً ما تكون التعويض الذي به يُكافئ الخائفُ نفسَه عِوَضاً عن آلام الخوف ومُعاناته. وكلَّما زاد خوفُه، تضاعفت ضغينته. ثُمَّ إنَّ الضغينة أيضاً مُسكِّنٌ ناجعٌ للخِزي. فلِكي تُحدث جرحاً عميقاً في خيريَّته وحبِّه للإحسان، ينبغي لك إذاً أن تقهر شجاعته أوَّلاً.

٣ التماهي: التوحُّد والاندماج بجماعة معيَّنة، بحيث تصير قضايا هذه الجماعة قضاياه.

ولكنَّ هذه المهمَّة دقيقة. فنحن قد جعلنا البشر يتفاخرون بمعظم الرذائل، إنَّما ليس بالجَبانة. وكلَّما كِدنا ننجح في ذلك، يسمح العدوُّ بحصول حربٍ أو زلزال أو كارثةٍ أُخرى، وفي الحال تصير الشجاعة مُحبَّبة ومُهِمَّةً على نحوٍ بديهيٍّ حتَّى أمامَ العيون البشريَّة بحيث يبطل مفعول مجهوداتنا كلِّها، وتبقى على الأقلِّ رذيلةٌ واحدة هي الجبانة يشعرون إزاءَها بالخزي الحقيقيّ. من هنا كان الخطر الذي يحفُّ ببثِّنا الجَبانة في قلوب مَرضانا مُتمثِّلاً في إمكانيَّة إنتاجنا معرفةً للذات وكراهيةً للنفس حقيقيَّتين، مع ما يعقبهما من توبةٍ وتذلُّل. وفي الحقيقة أنَّ آلافاً من الآدميِّين، في أثناء الحرب السابقة، باكتشافهم جُبنَهم الشخصيَّ اكتشفوا عالَم الأخلاق كلَّه للمرَّة الأولى. ففي زمن السِّلم يمكننا أن نجعل كثيرين منهم يتجاهلون الخير والشرَّ كلِّيّاً. ولكنْ في خضمِّ الخطر تُفرَض عليهم المسألة بهيئةٍ لا نستطيع حتَّى نحن أن نُعمِيَهم عنها. وههُنا مأزِقٌ حَرِجٌ أمامنا. فإذا روَّجْنا العدل والإحسان بين البشر، نكون كَمَن يَرعى مصالح العدوِّ مباشرةً. ولكنْ إذا وجَّهناهم نحو السلوك المُعاكِس، فإنَّ ذلك يُنتج حرباً أو ثورة، عاجلاً أو آجلاً (لأنَّ العدوَّ يسمح بأن يُنتِجهما). ثُمَّ أنَّ الظهور السافر للجَبانة أو الشجاعة يُوقِظ آلاف البشر من سُباتِهم الخُلقيّ.

وربَّما كان هذا بالحقيقة واحداً من الدوافع التي حَدَت بالعدوِّ إلى خَلق عالَمٍ حافلٍ بالمخاطر: عالَم فيه تُوضع المبادئ الأخلاقيَّة في حيِّز العمل. فهو يرى جيِّداً، كما ترى أنت، أنَّ الشجاعة ليست مجرَّد واحدةٍ من الفضائل، بل هي صورةُ كلِّ فضيلة عند نقطة الامتحان، أي عند نقطة الحقيقة العُليا. ذلك أنَّ العِفَّةَ، أو الاستقامة أو الرحمة التي تتعرَّض للخطر ستكون عفيفةً، أو مُستقيمةً أو رحيمة، وفقاً لشروطٍ ومواصَفات مُعيَّنة فقط. فإنَّ بيلاطُس مثلاً كان رحيماً إلى أن صارتِ

الرحمة محفوفةً بالخطر.

وعليه، فمن الممكن أن تربح على قدْر ما تخسر بجعل زبونك جباناً: إذ قد يكتشف بشأن نفسه أموراً أكثر مما يجب! طبعاً، تتوافر دائماً الفُرصة، لا لتخدير الخزي، بل لِمُفاقمته وإحداث اليأس. ومن شأن هذا أن يكون نصراً باهراً. إذ لا بُدَّ أن يُبيِّن أنَّ المريض قدِ اعتقد – وتقبَّل – غفرانَ العدوّ لخطاياه الأُخرى فقط لأنَّه هو نفسه لم يشعر بشكلٍ تامٍّ بخاطئيَّتها، وأنَّه في ما يتعلَّق بتلك الرذيلة التي يفهمها حقَّ الفهم، بكلِّ ما فيها من خزيٍ عميق الغَور، لا يمكنه أن يلتمس الرحمة ولا أن يثق بها. غير أنَّني أخشى أن تكون فعلاً قد تركتَه يتوغَّل كثيراً في مدرسة العدوّ، وأنَّه يعرف أنَّ اليأس خطيَّةٌ أكبر من أيَّة واحدة من الخطايا التي تبعثُه أو تسبِّبُه.

أمَّا بالنسبة إلى الأساليب الفعليَّة المختصَّة بالتجارب المُغرية للإيقاع بالجبن، فلا داعيَ للإفاضة في الشرح. فالنقطة الرئيسة هي أنَّ الاحتياطات تنطوي على نزعة لمضاعفة الخوف. إلاَّ أنَّ الاحتياطات المفروضة عَلَناً على مريضك سرعان ما تغدو مسألةَ روتين، ومن ثَمَّ يتلاشى هذا الأثَر. فما يجب عليك أن تفعله هو أن تشغل ذهنه دائماً (جنباً إلى جنب مع النيَّة الواعية لديه لأداء الواجب) بالفكرة المُبهَمة في كلِّ أمرٍ من الأمور التي يمكن أن يفعلها أو ألاَّ يفعلها، داخلَ إطار الواجب، تلك الأُمور التي يبدو أنَّها تجعله في وضع أكثر سلامةً قليلاً. حوِّل ذهنه عن القاعدة البسيطة "ينبغي لي أن أبقى هنا وأفعل كذا وكذا" إلى سلسلة من خطوط الحياة الوهميَّة ("إذا حصل أ – رُغم أنِّي أرجو كثيراً ألاَّ يحصل – يمكنني أن أفعل ب، وإذا بلغت الأمور أسوأ حالةٍ لها، يمكنني دائماً أن أفعل ج!"). ومن الممكن إيقاظُ الخُرافات، إن لم يُنظَر إليها باعتبارها خرافاتٍ. فبيتُ القصيد هو إبقاؤه

شاعراً بأنَّ لديه شيئاً مّا، غيرَ العدوّ والشجاعة التي يمدُّه بها العدوّ، كي يلجأ إليه، بحيثُ إنَّ ما قُصد له أن يكون التزاماً كلّيّاً للواجب يضعُف في جميع أجزائه مع بقاءِ تحفُّظاتٍ لاواعيةٍ بسيطة. وبإنشائك سلسلةً من الذرائع الوهميّة للحيلولة دون "بلوغ الأمور أسوأ حالةٍ لها"، يمكنك أن تُنتج – على مستوى إرادته الذي لا يعيه – تصميماً على وجوبِ عدم بلوغ الأمور أسوأ حالةٍ لها. بعدئذٍ، في لحظة الرُّعب الفعليّ، انقُلِ ذلك التصميم بسرعةٍ بالغة إلى داخل أعصابه وعضلاته، لعلّك تحصل على إنجاز فِعلتك المُهلِكة قبل أن يدريَ ما أنتَ بصدده. فإنّما ينبغي لك أن تتذكّر أنَّ فِعل الجَبانة هو كلُّ ما يهمُّ. أمّا شعور الخوف بحدِّ ذاته فليس خطيَّة. ولئنِ استمتعْنا به، فهو لا ينفعنا أيَّ نفع.

عمُّكَ المُحِبّ
خُربُر

٣٠

عزيزي عَلقَم،

إنيّ أُسائل نفسي أحياناً عن هل تظنّ بأنّك قد أُرسِلتَ إلى العالَم لأجل إمتاع نفسك وتسليتها. فقد علمتُ، ليس من تقريرك غير الوافي على نحوٍ يُرثى له بل من تقرير الشُّرطة الجهنَّميَّة، أنَّ سلوك المريض في أثناء الغارة الأُولى كانٍ أسوأ ما يمكن حصوله. فقدِ ارتاع وارتعد جدّاً، وهو يحسب نفسه جباناً كبيراً، ولذلك لا يشعر بأيّ فخر. غير أنّه قد قام بكلّ ما اقتضاه واجبُه، وربّما بأكثرَ من ذلك بقليل. وكلُّ ما يمكنك القيام به في مواجهة هذه البليَّة، كي يسجَّل لحسابكَ، هو أن تُحدِثَ لديه نوبةً مفاجئةً من الانفعال الرديء على كلبٍ جعله يتعثَّر، وشيئاً من الإفراط في تدخين السجائر، ونسيانَ صلاةٍ من الصَّلَوات. فما نفعُ تعبيرِكَ لي عن مصاعبك بالأنين والانتحاب؟ إذا كنتَ تمضي في عملك على أساس فكرة العدوّ عن "العدالة"، مُلمِّحاً إلى أنَّ فُرَصَك ونيَّاتك ينبغي أن تؤخَذ في الحسبان عند محاسبتك، فلستُ على ثقة بأنَّ تهمة الهرطقة لا تثبت عليك. على كلّ حال، سيتبيَّن لك سريعاً أن عدالةَ الجحيم واقعيَّةٌ على نحوٍ صِرف، ومَعنيَّةٌ فقط بالنتائج. فارجِع إلينا حامِلاً طعاماً، وإلاَّ غَدوتَ أنتَ نفسُك طعاماً.

إنَّما الجزءُ الوحيد البنّاء في رسالتك هو حيثُ تقول إنَّك ما زلتَ تتوقَّع نتائجَ جيِّدة من إرهاق مريضك. فذلك حسنٌ إلى حدٍّ بعيد. إلاَّ أنَّه لن يقعَ في يدك بسهولة. إذ إنَّ الإرهاق قد يُنتج لُطفاً زائداً، وسَكينةً في الذهن، بل أيضاً شيئاً يُشبه الرؤيا. فإنْ كنتَ قد رأيت في أغلب الأحيان بَشراً يدفُعهم الإجهاد إلى الغضب والمكر ونفاد الصَّبر، فذلك لأنَّ مُجرِّبين فعَّالين تعاملوا مع أولئك البشر. لكنَّ الأمرَ المُنطوي على تناقُضٍ ظاهريّ هو أنَّ الإعياء المعتدل تُربةٌ للنَّكد أصلحُ من الإنهاك الشديد. ويعتمِد هذا جزئيّاً على أسبابٍ طبيعيَّة، إنَّما جُزئيّاً على شيءٍ آخر. فليس مُجرَّد الإرهاق في حدِّ ذاته هو ما يُنتج الغضب، بل المُتطلَّبات غير المتوقَّعة من الإنسان المُرهَق. ومهما توقَّعه البشر، فسرعانَ ما يصيرون يعتقدون أنَّ لهم حقّاً فيه: فالشعور بالخيبة — بقليلٍ جدّاً من البراعة من قِبَلنا — يمكن أن يتحوَّل إلى شعورٍ بالحَيف أو الظُّلم. فإنَّما بعد أن يكون الآدميُّون قد استسلموا لِما لا يمكن شفاؤه، وبعد أن يكونوا قد يئسوا من الفَرَج وكفُّوا عن التفكير الاستباقيّ ولو قبلَ نصف ساعة، عندئذٍ تبدأ مخاطرُ الإعياء المُخضَع المتواضع والخفيف. وعليه، فلِكَي تُطلعَ أفضل النتائج من إرهاق المريض يجبُ عليك أن تَملأَهُ آمالاً زائفة. بُثَّ في ذهنه أسباباً معقولة للاعتقاد أنَّ الغارة الجوِّيَّة لن تتكرَّر. أبقِه مُعزِّياً نفسَه بالتفكير في كم سيستمتع ليلةَ غدٍ بالنوم في سريره. ضخِّم الإرهاقَ بجعلْه يظن أنَّه سينتهي سريعاً: فإنَّ البشر عادةً يشعرون بأنَّ التوتُّر لم يعُد ممكناً احتمالُه لحظةَ يكونُ مُوشِكاً على الانتهاء، أو حينَ يظنون أنَّه يُوشِك أن ينتهي. ههُنا، كما في ما يتعلَّق بالجبانة، يتمثَّل الأمر الذي يجب تجنُّبه في الالتزام الكلِّيّ. فمهما يَقُل، فدَع نيَّته القلبيَّة تنحصر في ألاَّ يتحمَّل أيَّ أمرٍ يأتي عليه، بل أن يتحمَّله على مدى "فترة زمنيَّة معقولة" ... ولتكُنِ الفترة المعقولة أقصر من

المدة المحتملة لاستمرار التجربة. ولا داعيَ لأَنْ تكون أقصر بكثير. ففي الهجمات التي تستهدف الصبر والعفاف والثبات، تكمن التسلية في جعل الإنسان يستسلم تحديداً حين يكاد الفَرَج يلوح للعِيان (لو أنه كان يستطيع أن يعرف ذلك!).

لستُ أدري أيُحتمل أن يلتقيَ الفتاة في ظروف التوتُّر أم لا. فإنِ التقاها، فاستغلَّ أحسنَ استغلالٍ واقعَ كون الإرهاق، إلى حدٍّ مُعيَّن، يجعل النساء يُكثِرن من الكلام والرجال يُقلِّلون منه. وكثيرٌ من الامتعاض الخفيّ، حتَّى بين الأحبّاء، يُمكِن أن يُثار من ذلك.

ربَّما كان من شأن المناظر التي يُشاهِدها الآن ألاَّ توفِّر مادَّةً لشنِّ هجمة عقلانيَّة على إيمانه. فإنَّ إخفاقاتك السابقة قد جعلت ذلك خارجَ نطاق قدرتك. ولكنَّ ثمَّة نوعاً من الهجوم على المشاعر ما زال ممكناً تجريبُه. ويتمُّ ذلك بأن تجعله يشعر، حين يرى أوّلَ مرّة أشلاءً بشريَّة مُلتصِقة بجدار، بأنَّ "هذه هي حالةُ العالَم في الواقع" وبأنَّ كلَّ تديُّنه كان حلماً أو وهماً. وستُلاحِظ أنَّنا قد أدخلنا الآدميِّين في غمامة غامضة بشأن معنى الكلمة "واقع". فهم يُحدِّثون بعضُهم بعضاً عن اختبارٍ روحيٍّ عظيم من نوعٍ ما، قائلين: "كلُّ ما حدث في الواقع هو أنَّك سمعتَ شيئاً من الموسيقى في بناء مُضاء." و"الواقع" هنا يعني الحقائق المادِّيَّة الصِّرف، مُنفصِلةً عن عناصر الاختبار الأُخرى التي خبروها فعليّاً. وفي المُقابل، سيقولون أيضاً: "حسنٌ جدّاً أن تبحث في تلك 'الغطسة' العالية وأنت جالسٌ هنا على كرسيٍّ ذي ذراعَين، إنَّما انتظِر حتَّى ترتقي إلى هُناك فتعرف حقيقتها في الواقع." ههُنا يُستخدَم "الواقع" بالمعنى المُعاكِس، ليَعني لا الحقائق المادِّيَّة (التي يعرفونها فعلاً وهم يبحثون المسألة بحثاً نظريّاً) بل التأثيرَ العاطفيَّ الذي يكون لهذه الحقائق في الإدراك البشريِّ عند أحدهم. يمكن الدفاع عن استعمال الكلمة بكِلا

المعنيَين؛ ولكنَّ شُغلنا هو أن نُبقي الاثنين جاريَين في آنٍ واحدٍ حالاً بحيثُ إنَّ القيمة العاطفيَّة للكلمة "واقع" يمكن تقييدها تارةً في هذا الجانب من الحساب وطوراً في ذلك الجانب، وفقاً لِما يصدف أن يُناسِبنا. والقاعدةُ العامَّة التي قد رسَّخناها بينهم بشكلٍ جيد حتَّى الآن هي أنَّه في جميع الاختبارات التي يمكن أن تجعلهم أسعد، أو أفضل، تكون الحقائق الماديَّة "واقعيَّة" فيما تكون العناصر الروحيَّة "ذاتيَّة"؛ وفي جميع الاختبارات التي يمكن أن تُحبِطهم، أو تُفسِدهم، تكون العناصر الروحيَّة هي الحقيقة الواقعة الرئيسة، ومَن تجاهلهنَّ كان تهرُّبيّاً. وعليه، ففي الولادة يكون الدَّمِ والألم "واقعاً" فيما يكون الابتهاج مجرَّد وجهة نظر ذاتيَّة.

أمَّا في الموت، فالهول والبشاعة يكشفان ما "يعنيه الموتُ في الواقع". كما أنَّ مكروهيَّة الشخص المكروه هي "واقع"، ففي الكراهية ترى البشر على حقيقة حالهم، إذ تتحرَّر من التوهُّم. أمّا محبوبيَّة الشخص فهي مجرَّد غَمامة تلفُّ لُبّاً "واقعيّاً" بحيث تكونُ هذه الغمامة من الشهوة الجنسيَّة أو المُزاملة الاقتصاديَّة. ثمَّ إنَّ الحروب والفقر مُروِّعةٌ "في الواقع". أمَّا السلام والرخاء فمجرَّد حقيقتين ماديَّتين يصدف أنَّ للبشر بشأنهما مشاعر مُعيَّنة. والخلائق دائماً يتَّهمون بعضُهم بعضاً بالرغبة في "أكل الكعكة وحيازتها". إنَّما بفضل مجهوداتنا يتورَّطون أغلبَ الأحيان في مأزق دفع ثمن الكعكة وعدم أكلها. فإن أنت أحسنتَ تولِّي أمر مريضك، فلن يلقى أيَّة صعوبة في حسبان عاطفته عند مرأى أحشاءٍ بشريَّة مُندلِقة تجلِّياً للحقيقة الواقعة، وفي حسبان عاطفته عند مرأى أولادٍ سُعداء أو طقسٍ حسن مجرَّد خاطرة وجدانيَّة.

عمُّكَ المُحبّ

خُربُر

١٣١

عزيزي الأعزَّ عَلقَم، حبيبي الأحبَّ،

كم هو أمرٌ مغلوط فيه الآن، بعدما تبدَّد كلُّ شيء، أن تأتي إليَّ شاكياً باكياً لتسألَني بشأن ألفاظ العاطفة والمودَّة التي أُخاطِبك بها إن لم تكُن تعني شيئاً من البداية. حاشا! كُن مطمئنّاً إلى أنَّ حُبِّي لك وحبَّك لي مُتشابِهان كأنَّهما فُولةٌ انقسمت. فلطالما اشتقتُ إليك كلَّ حين مثلما اشتقتَ أنت إليَّ (أيُّها المُغفَّل الجدير بالشفقة). إنَّما الفَرقُ أنَّني أنا الأقوى. فأظنُّ أنَّهم سيُعطونَني إيَّاك الآن ... أو جزءاً منك. أأُحِبُّك؟ عجباً، بالطَّبع أُحِبُّك: كلُقمةٍ سائغة يُتاح لي أن أسمن بفضلها!

لقد سمحتَ لنفسٍ بأن تنفلت من بين أصابعك. وما تزال زعقة الجوع الحادّ من أجل تلك الخسارة تتردَّد أصداؤها حاليّاً عبرَ جميع صُعُد مملكة الضجيج وصولاً إلى العرش ذاته في الأسفل. وتفكيري بها يُفقِدني صوابي. وما أوضحَ ما أعرفه عمَّا حدث لحظةَ اختطفوه من يدك! لقدِ انجلى بصرُه فجأةً (أليس كذلك؟) إذ رآك أوَّلَ مرَّة، وتبيَّن له ذلك الجزءُ الذي كان لك منه، وعلم أنَّه لم يعُد لك قطعاً. إنَّما فكر فقط في ما شعر به تلك اللحظة (وليكن هذا بداية كَرْبِك): لَكأنَّ قشرةً

سقطت من قَرْح قديم، وكأنَّه هو بدأ يتعافى من مرض جلديٍّ صَدَفيٍّ شنيع، أو كأنَّه خلع عنه بسرعة، مرَّةً واحدة وإلى الأبد، ثوباً مُدنَّساً رطباً ملتصقاً به. وحقِّ الجحيم، يكفينا شقاءً أن نرى الآدميِّين في أيَّامهم الفانية يخلعون ثيابهم الوسخة والمُزعِجة وينضحون على أجسادهم ماءً ساخناً، مُطلِقين نَخيرَ ابتهاج يسيراً ... مُمدِّدين أطرافَهم المُسترخِية. فما قولك إذاً في هذا التجرُّد الأخير، هذا التطهير الكامل؟

كُلَّما فكَّرنا في الأمر، بات أسوأ. لقد عبر بمنتهى السهولة! لا هواجس مُتدرِّجة، ولا حُكم طبيب، ولا دار تمريض، ولا قاعة عمليَّات جراحيَّة، ولا آمال زائفة بالحياة، بل تحرُّرٌ فوريٌّ محض. بدا كلُّ شيءٍ في لحظةٍ أشبه بعالَمنا: دويُّ القنابل، تهدُّم المنازل، النَتَن والطَّعم المُقرفان للمُتفجِّرات الهائلة على الشِّفاه وفي الصُدور، الأقدام يُلهبها الإعياءُ والقلوب تُجمِّدها الأهوال، العقول يعتريها الدُّوار والأرجلُ ينتابها الألم. وفي اللحظة التالية تبدَّد ذلك كلُّه وتلاشى ككابوسٍ ثقيل، بحيثُ لا يكون له بعدُ أيُّ حساب. تبّاً لك من مُغفَّل مهزوم دحرَته مُناوَراتُ مَن هو أبرعُ منه! ألاحظتَ بأيَّة صورة طبيعيَّة دخل الطُفيليُّ الأرضيُّ الحياة الجديدة، وكأنَّه قد وُلِد لأجلها؟ وكيفَ صارت كلُّ شكوكه، بطرفة عين، تافهةً سخيفة؟ إنِّي أعرفُ ما كان ذلك المخلوق يقوله لنفسه: "نعم، طبعاً، لقد كانتِ الحال دائماً على هذا المنوال. فجميع الأهوال سارت في المجرى عينه، مُتعاظِمة ومُتفاقمة، وحاشرةً المرء في ما يُشبه عُنُق قِنِّينة، وإذا بالمرء — لحظةَ حسب أنَّه سيُسحَق لا محالة — يخرجُ من الضِّيقات كلِّها ويصير كلُّ شيءٍ بخيرٍ فجأةً! خَلعُ الضِّرس يؤلم أكثر فأكثر، ثُمَّ يصير الضِّرسُ خارج الفم. وصار الحِلم كابوساً، ثمَّ يستيقظ. فكأنَّه يموت ويموت، ثُمَّ يصير في ما وراء الموت. تُرى، كيف أمكنني أن أشكَّ في ذلك مرَّةً؟"

وإذْ رآك، رآهم هُم أيضاً. وأنا أعرف كيف حدث الأمر. فقد نكصتَ وتراجعت دائخاً مُعمىً، وقد آذوك هُم أكثر مّما آذته القنابلُ. يا للخزي! كيف يستطيع هذا الشيءُ المصنوعُ من التُّراب والطِّين أن يقف مستقيماً ويتحدَّث مع أرواحٍ لا يسعُك أنت، رغم كونِك روحاً، إلاَّ أن تنكمش أمامها خائفاً واجفاً. لعلَّك رجَوتَ أنَّ ما في المشهد من رهبة وغرابة لا بُدَّ أن يُفسِد بهجته. ولكنَّ ذلك هو الأمر اللعين: أنَّ الآلِهة[1] غريبةٌ بالنسبة إلى العيون البشريَّة، ومع ذلك فهي ليست غريبة. فلم يكن لديه أدنى تصوُّر، حتَّى تلك الساعةِ بعينها، في ما يتعلَّق بحقيقة هيئة الآلهة، بل إنَّه أيضاً شكَّ في وجودها. ولكنَّه لمَّا رآها علم أنَّه كان يعرفها كلَّ حين، وأدرك أيَّ دورٍ أدَّاه كلٌّ منها في ساعاتٍ كثيرة من حياته حينَ افترضَ أنَّه وحيد، حتَّى إنَّه الآن استطاع أنْ يقول لكلٍّ واحدٍ منها، ليس "مَن أنت؟" بل "إذاً، كان ذلك أنت كلَّ الوقت." وكلُّ ما كانوا عليه وقالوه في هذا اللقاء أيقظ ذكرياتٍ شتَّى. فالوعيُ الغامض للأصدقاء حوالَيه، ذاك الذي انتاب ساعاتِ وحدته منذ حداثة سنِّه، قدِ اتَّضح الآن أخيراً. والموسيقى المركزيَّة في كلِّ اختبارٍ صِرف، تلك التي راوغتِ الذاكرة تماماً كلَّ حين، قد ابتُعِثَتِ الآن في الأخير. ولقد حرَّره الإدراكُ من عِشرتهم، قُبيلَ هُمود الحركة في أوصال جُثمانه. إنَّما أنتَ وحدك تُرِكتَ خارجاً.

ثُمَّ إنَّه لم يرَ الأرواح وحدها، بل رآه هو بالذات أيضاً. أجل، هذا الحيوان، هذا الشيءُ المولود على سرير، تسنَّى له أن ينظر إليه هو. فما هو نارٌ مُعمِيةٌ خانِقة لك إنَّما هو له الآن نورٌ رائقٌ هادئٌ، بل هو الصَّفاء بذاته، وهو مُرتَدٍ هيئة إنسان. ولا بدَّ أن ترغب — لو استطعتَ — في تفسير

[1] يقصد الكاتب بالآلهة الملائكة التي تفوق البشر. ولا ننسَ أن هذا الحديث هو على فم الشيطان خربر.

سجودِ المريض أمامَ الحَضرة وكُرهِه لذاته ومعرفتِه الشاملة لخطاياه (نعم، يا عَلقَم، إنَّها معرفةٌ أجلى حتَّى من معرفتك أنت) من خلال المُفارقة بينها وبين أحاسيسك الخانقة والشالَّة عندما تتلقَّى الهواء المُهلِك الذي يهبُّ من قلبِ السماء. ولكنَّ ذلك كلَّه هُراءٌ بِهُراء. فلئن جاز له بعدُ أن يواجه الألَم، فإنَّه يتقبَّل تلك الآلام بسرور. ولن يُقايِضها بأيَّة لذَّةٍ دُنيويَّة. فإنَّ جميع مباهج الحسّ، أوِ القلب، أوِ العقل، تلكَ التي كان يمكنك في الماضي أن تُجرِّبه بها، حتَّى مباهج الفضيلة بعينها، لا تبدو له الآن بالمقارنة إلاَّ مثلَ الأمور الجذّابة شبه المُغثية التي قد تُمثِّلها بنتُ هوىً مُنهَكةٌ لِرجُل يسمع أنَّ محبوبته التي طالما أحبَّها طول عُمرِه والتي اعتقد أنَّها قد ماتت ما تزال على قيد الحياة وهي عند بابه هذه اللحظةَ عينَها. لقد رُفِع إلى ذلك العالَم الذي فيه تُضفى على الألم والبهجة قِيَمٌ تُجاوِز كلَّ حدّ، ويُروِّع تجاهها كامِلُ علم الحساب عندَنا. وههُنا يُواجِهنا مرَّةً أخرى ما يستعصي على التفسير. فبعدَ لعنة المُجرِّبين غير النافعين من أمثالك، تحلُّ علينا اللعنة الكبرى المتمثِّلة في فشل دائرة الاستخبارات لدينا. يا ليتنا فقط نستطيع أن نكشف ما ينوي هو أن يفعله حقّاً! واأسفاه، إنَّ معرفة ما ينوي هو عمله، رغم كونها بحدِّ ذاتها أمراً بغيضاً ومُغثِياً للغاية، تبقى ضروريَّةً بعدُ لأجل السُّلطة! أحياناً، يكاد اليأسُ يبلغ منّي كلَّ مبلغ. إنَّما كلُّ ما يمدُّني بأسباب الحياة هو الاقتناع الراسخ بأنَّ واقعيَّتنا، في رفضنا لكُلِّ التُّرَّهات والسفاسف السخيفة (رُغم جميع الإغواءات والإغراءات)، أن تنتصر في خاتمة المطاف. وفي هذه الأثناء، ينبغي لي أن أسوِّي حسابي معك. فبكلِّ إخلاصٍ أُذيِّل رسالتي هذه بإمضائي على أنّي

عمُّكَ المُحِبُّ بصورةٍ مُتعاظِمة ومُتفاقِمة

خُربُر

خَربُر يقترح نخباً

خُربُر يقترح نخباً

غالباً ما طُلِب إليَّ، أو نُصِحتُ، أن أزيد على "رسائل خُربُر" الأصليَّة. ولكنْ مرَّت عدَّةُ سنين وأنا لا أشعر بأدنى مَيلٍ إلى القيام بذلك. ومع أنَّني لم أكتب قطُّ أيَّ شيء آخر بسهولةٍ أكثر، فإنِّي لم أكتب قطُّ باستمتاع أقلّ. أمَّا السهولة، بلا شكّ، فقد جاءت من حقيقة كون طريقة الرِّسائل الشيطانيَّة ما إن تُفكِّر فيها حتَّى يَسهُل كتابتها واقتيادها، شأنُها شأنُ عمالقة سُويفت وأقزامه، أو الفلسفة الطِّبِّيَّة والأخلاقيَّة عند "إيرُوْن"، على سبيل التمثيل. ومن شأنِ هذه الطريقة أن تجري معك كعجلةٍ ذاتيَّة الحركة ألفاً من الصفحات، إن أنتَ ألقيت حبلها على غارِبها. ولكنْ رُغم كونه أمراً سهلاً أن تبرم عقلك كي تقف الموقفَ الشيطانيّ، فإنَّ ذلك لم يكن مُمتِعاً، أو لم يكن هكذا وقتاً طويلاً. فإنَّ الإجهاد أنتجَ نوعاً من التشنُّج الروحيّ. إذ كان العالَم الذي اضطُررت إلى إسقاط نفسي فيه في أثناء تحدُّثي بلسان خُربُر حافلاً بالغُبار والرِّمال والعطش والحِكَّة. وكان ينبغي أن يُستبعَد منه كلُّ أثرٍ من آثار الجمال والجِدَّة والأُنس. حتَّى إنَّه كاد يخنقني قبل فراغي من الكتابة. وكان من شأنه أن يخنق قُرّائي لو أطَلتُ.

أضِف أنَّه نشأ لديَّ نوعٌ من الضغينة على كتابي لعدم كونه كتاباً

مختلفاً لا يستطيع أيُّ شخص آخر أن يكتبه. ومن الناحية الكلاسيكيَّة النموذجيَّة، كان ينبغي أن تُشفَع نصائحُ خُربُر إلى عَلقَم بنصائح صادرةٍ عن أحد رؤساء الملائكة إلى ملاك المريض الحارس. فبغير هذه تبقى صورة الحياة البشريَّة مبتورة الجانب. ولكنْ مَن ذا يستطيع أن يسدَّ النقص؟ حتَّى لو أنَّ إنساناً (ولا بدَّ أن يكون إنساناً أفضل منِّي بكثير) استطاع أن يُحلِّق في الأجواء الروحيَّة العالية المطلوبة، فأيَّ "أُسلوبٍ وافٍ" يمكنه أن يَستَخدِم؟ فإنَّ الأُسلوب سيكون في الواقع جُزءاً من المضمون. ولن يكون مُجرَّدُ النُّصح نافعاً؛ إذ ينبغي لكلِّ جملة أن تفوح منها رائحة السماء. ولو كنتَ تستطيع أن تكتب نثراً أنيقاً راقياً اليوم، لَما سُمح لك بذلك، لأنَّ معيارِ "الوظيفيَّة" قد عطَّل من الأدب نصفَ وظائفه. (جوهريّاً، كلُّ نموذج أُسلوبيّ يُملي علينا ليس فقط كيف نقول الأمور بل أيضاً أيَّةَ أُمور يمكننا أن نقول.)

ثُمَّ كرَّتِ السنون، وبات الاختبارُ الخانق الذي رافق كتابة "الرسائل" ذكرى أوهى، فبدأتْ تخطر في بالي أفكارٌ في هذا أو ذاك من الأُمور التي بدت على نحوٍ ما مُستدعيةً معالجةً خُربُرِّيَّة. وكنتُ قد عقدتُ العزم على ألاَّ أكتب "رسالة" أُخرى. ثمَّ جالت في خاطري على نحوٍ غامض فكرةُ شيءٍ يُشبِه "محاضرةً" أو خطبة، وقد نسيتُها حيناً، واستذكرتُها آخر، إلاَّ أنَّني لم أكتبها قطّ. وبعدئذٍ بلغتني دعوةٌ من صحيفة ساترداي إيڤنِنغ پوست (The Saturday Evening Post)، فقدَحتِ الزَّند وأطلقَتِ الشرارة.

سي أس لِويس

المشهد هو في الجحيم، إلى مائدة الوليمة السنويَّة التي تقيمها كُليَّة تدريب المُجرِّبين للشياطين الصغار. وكان الرئيس، الدكتور صُلبغُوب، قد رفع من توِّه نخباً على صحَّةِ الضيوف. فإذا خُربُر، ضيفُ الشرف، يقف كي يردّ.

السيِّدَ الرئيس، صاحبَ الشرِّ المُحدِق، أهلَ الخزي، أشواكي، أربابَ الظلام، سادتي الشياطين الكِرام،

جَرَت العادة في مثل هذه المناسبة أن يتوجَّه المُتكلِّم بخطابه أساساً إلى أولئك الذين تخرَّجوا توّاً من بينكم، والذين ستُسنَد إليهم سريعاً مهامُّ إغواء رسميَّة على الأرض. وهذه عادة ألتزِمها طائعاً بطيبة خاطر. فإنّي أذكر جيِّداً بأيِّ ارتعاش انتظرتُ وظيفتي الأُولى. كما أرجو، وأثِق، أنَّ لدى كلِّ واحدٍ منكم الارتباكَ عينَه الليلة. فإنَّ سيرتكم المهنيَّة منبسطةٌ أمامكم، والجحيمُ يَتوقَّع ويطلب أن تكون – كما كانت سيرتي أنا – سيرة نجاح غير منقطع. وإلاَّ، فأنتم تعرفون ما ينتظركم!

ليس لديَّ أيَّةُ رغبة في التقليل من شأن عُنصر الرُّعب السليم والواقعيِّ المُتمثِّل في القلق المتواصل، والذي يجب أن يؤدِّي دور المِهماز

أو المَسّاس لدفع مساعيكم قُدماً. وما أكثر ما ستحسدون الآدميّين على مقدرة النوم لديهم! إلاّ أنّني في الوقت عينه لا بدّ أن أرغب في أن أعرض أمامكم نظرةً مُشجِّعة باعتدال تخصُّ الوضع الاستراتيجيَّ ككل.

لقد ضمَّن رئيسُكم المرهوب خطبةً حافلة بالنقاط ما يُشبه دفاعاً عن المأدُبة التي بسطها أمامنا. حسناً، أيُّها الشياطين الكرام، لا أحد يلومه هو. ولكنَّ من العبث أن نُنكِر أنَّ النفوس البشريَّة التي نُولِم الليلة على كَرْبها كانت من نوعيَّة رديئة إلى حدٍّ بعيد. فليس في وسع كلِّ ما لدى مُعذِّبينا من براعةٍ قُصوى في فنِّ الطَّبخ أن يجعل تلك النفوس أفضلَ من كونها تَفِهةً ومَذِقة.

أوّاه، لو يُنشِبُ الواحد منّا أنيابَه مرّةً أُخرى في فاريناتا[2] جديد، أو هنري ثامن[3] آخر، أو حتّى هتلر! فقد كان في ذلك طَحنٌ وسَحنٌ حقيقيّان؛ مادّةٌ مُقرمِشة مُقرقِشة؛ غيظٌ وأنانيَّة وقساوة أقلُّ عُنفاً بقليل فقط ممّا لدَينا نحن. وقد شكَّل ذلك مقاومةً لذيذة للالتهام، ودفأً الأحشاء بعد ابتلاعه.

فماذا كان لنا الليلةَ بدلاً من ذلك؟ قُدِّم لنا مسؤولٌ بلديَّة مع مَرَق النسيج المُطعَّم. ولكنّني أنا شخصيّاً لم أستطع أن أستبينَ فيه نكهةَ جَشَعٍ شغوف ووحشيٍّ حقّاً كتلك التي استساغها الواحدُ منّا في مُلوك المال العظام خلال القرن المنصرم. ألَم يكن بغير شكٍّ إنساناً حقيراً، مخلوقاً وسَّع جيوبه بتقاضي عمولةٍ ضئيلة، صاحبَ نُكتةٍ يسيرة في السرّ، مُتنكِّراً بأتفه الأقوال المبتذلة في كلامه العلنيّ، شخصاً تافهاً

٢ فاريناتا: شخصية تاريخية وأدبية اتصفت بالقسوة الشديدة والفساد الأخلاقي.

٣ كان هنري الثامن، ملك إنكلترا، يُعرَف بقسوته وبفساده الأخلاقي وتعدُّد الزوجات رغم تحريمها كنسياً.

وضيعاً تورَّط في الفساد، غيرَ مُدرِكٍ أنَّه فاسد إلاَّ أدنى إدراك، وقد فعل ذلك أساساً لأنَّ كلَّ شخصٍ سواه قد تورَّط في الفساد؟ ثُمَّ قُدِّمت لنا أيضاً قِدرُ الزُّناة الفاترة. فهلِ استطعتُم أن تجدوا فيها أيَّ أثرٍ لشهوةٍ بالغةِ التحرُّق والتحدِّي والتمرُّد والنَّهَم؟ أنا لم أستطع ذلك. إذْ كان مذاقهم جميعاً في فمي أشبه بالأغبياء الباردين جنسيّاً الذين تخبَّطوا أو تردَّدوا إلى الأسِرَّة الخطإ باستجابةٍ آليَّة للإعلانات المُثيرة جنسيّاً، أو ليدفعوا أنفُسَهم إلى الشعور بأنَّهم عصريُّون ومتحرِّرون، أو ليطمئنُّوا إلى رجولتهم أو "حالتهم السويَّة"، أو حتَّى لأنَّه لم يكن لديهم شيءٌ آخر يفعلونه. بصراحة، أنا الذي ذُقتُ ميسالينا[٤] وكازانوفا[٥]، وَوجدتُهم مُغثِين. أمّا النقابيُّ المُتبَّل بالهُراء فربَّما كان أفضل بمقدارٍ ضئيل. إذ إنَّه أحدث بعض الضَّرَر الحقيقيّ. فقد عمل، في جهلٍ تامٍّ منه، على سفك الدِّماء وإحلال المجاعة وكبْت الحرِّيَّة. نعم، فعلَ ذلك بطريقة معيَّنة. ولكن، يا لها من طريقة! فقد فكَّر قليلاً جدّاً بتلك الأهداف القصوى. وكان ما سيطر على حياته في الواقع هو التزام سياسة الحزب بكلِّ حذافيرها، والاعتداد بالذات، وأهم شيءٍ الروتين.

إنَّما هنا نصل إلى بيت القصيد. فبمُقتضى فَنِّ حُسنِ الأكل، هذا كلُّه يُرثى له. ولكنَّني أرجو ألاَّ يضعَ أيُّ واحدٍ منَّا فَنَّ حُسن الأكل في المرتبة الأولى. أفليس هو، بطريقة أُخرى أكثر جِدِّيَّةً، مُفعماً بالأمَل والبشائر؟

تأمَّلوا أوَّلاً الكمِّيَّة فقط. ربَّما تكون النوعيَّة رديئة؛ ولكنَّنا لم نحصل قطُّ على نفوس (رديئة النوع) بوفرةٍ أكثر.

٤ ميسالينا: إحدى زوجات الإمبراطور نيرون. تُشتهر بقسوتها وجشعها، وبشكلٍ خاص بفسادها الأخلاقي.

٥ كازانوفا: مغامر إيطالي من القرن الثامن عشر، عُرِف بمغامراته الجنسية.

ومِن ثَمَّ الانتصار. فنحنُ نُغرى بأن نقول إنَّ مثل هذه النفوس – أو مثل تلك الوحول المُترسِّبة مِمَّا كان نفوساً في ما مضى – لا تكاد تستحقُّ حكم العقاب الأبديّ. نعم، ولكنَّ العدوَّ (لأيِّما سببٍ مُبهَم وفاسد) عدَّهم أهلاً لأن يُحاوِل تخليصهم. صدِّقوني، لقد فعل ذلك. وأنتم الصغارَ الذين لم تُكلَّفوا بعدُ خدماتٍ فعليَّة ليس لديكم أدنى فكرة بأيِّ عملٍ شاقّ، وبأيَّة مهارة مُرهَفة، تمَّ أخيراً الاستيلاءُ على كلِّ واحدٍ من هؤلاء الخلائق التُّعَساء.

وقد كمنتِ الصعوبة في صغرهم وضعفهم بالذات. إذ كان ههُنا طُفَيليُّون مُشوَّشو الذهن جدّاً، ومُستجيبون للبيئة بمنتهى الخمول، حتَّى كان من الصعب للغاية الارتقاءُ بهم إلى مستوى الوضوح والتَروِّي ذاك الذي عنده تصير الخطيَّة المميتة مُمكنة: الارتقاءُ بهم إلى الحدِّ الكافي فعلاً، إنَّما دون ذلك المِلِّيمتر الواحد المصيريِّ المتمثِّل في "مُجاوزة الحدّ". فعندئذٍ بالطبع يُحتمَل أن تحصل الخسارةُ الكلِّيَّة، حيث كان ممكناً أن يَعُوا وممكناً أن يتوبوا. ومن الناحية الأُخرى، لو رُفعوا إلى مستوىً أدنى قليلاً من المطلوب لتبيَّنت على وجه الاحتمال أهليَّتُهم للأعراف،[٦] بوصفهم خلائقَ لا يَصلحون للنَّعيم ولا للجحيم: كائناتٍ أخفقت في بلوغ المُستوى المَنشود فتُرِكت تغوص إلى الأبد في وضعِ بشريَّةٍ دُون[٧] قانعة تقريباً.

وفي كلِّ خِيارٍ لِما من شأن العدوِّ أن يُسمِّيه مُنعطَفاً "خطأً"، نادراً ما يكون أمثالُ هؤلاء الخلائق (إذا تيسَّر لهم ذلك أصلاً) في حالةِ مسؤوليَّةٍ روحيَّةٍ كاملة. فهم لا يفهمون مصدر النَّواهي التي يُخالِفونها، ولا طبيعتَها

٦ الأعراف: هو الموقع المتوسط بين السماء والجحيم بحسب بعض الأنظمة الفكرية. يُدعى «الليمبو» أو «المطهر» عند البعض، مع وجود شيءٍ من الاختلاف في المفهوم.

٧ بشريةٌ دونٌ: أي أقل من مستوى البشرية الطبيعية.

الحقيقيَّة. ولا يكاد وعيُهم يَنوجد بمعزلٍ عن الجوّ الاجتماعيّ المحيط بهم. ونحن بالطبع قدِ احتلنا حتَّى تكون لغتهم ذاتُها مُغشّاةً بالضباب والدُّخان: فمَا يُعتبَرُ رشوةً في مهنة شخص آخر هو إكرامية أوهديّة في مهنتهم هم. وقد كان أوّل عمل تعيَّن أن يقوم به مُجرِّبوهم هو أن يُقسُّوا هذه الخِيارات للطُرق المؤدِّية إلى الجحيم بحيث تصير عادةً راسخة من خلال التكرار الدائم. إنَّما بعد ذلك (وقد كان هذا ذا أهمّيَّة كبيرة) أن يحوِّلوا العادة إلى مبدإ: مبدإٍ يكون المخلوق مستعدّاً للدِّفاع عنه. ومِن ثمَّ سيسير كلُّ شيءٍ حسناً. فالتكيُّف حسبَ البيئة الاجتماعيَّة، بعد أن يكون أوّل الأمر غريزيّاً محضاً أو حتَّى آليّاً (وكيف يمكن ألاَّ يتكيَّف الهُلام وفقاً لقالبه؟)، يغدو الآن قانوناً غير مُعترَف به، أو مثلاً أعلى مَعنيّاً للمعيَّة والمُشارَكة أو مُجاراة الجيران ومَشابَهتهم. ومُجرَّد جهلهم للقانون الذي يخرقونه يتحوَّل الآن إلى نظريَّة غامضة بشأنه (تذكَّروا أنَّهم لا يعرفون التاريخ بتاتاً): نظريَّة يعبِّرون عنَّها بتسمية القانون "أخلاقيَّات تقليديَّة أو طهوريَّة متزمِّتة أو بورجوازيَّة. وهكذا يَنوجِد تدريجياً في قلب المخلوق لبٌّ صُلبٌ قاسٍ راسخٌ قوامُه العزم على الاستمرار في كونه ما هو عليه، بل أيضاً على مقاومة الحالات النفسية النزَّاعة إلى تبديله. إنَّه لبٌّ صغير جدّاً، غير مَعنيٍّ أبداً بالتفكير أو التأمُّل (فهُم أجهلُ من أن يفعلوا هذا) ولا بالتحدِّي (حيث فقرُهم العاطفيُّ والخيالي يُقصي هذا الأمر)؛ يكاد يكون — على طريقته الخاصّة — متأنِّقاً ومُتحاشِماً؛ أشبه بحصاة أو آفة خبيثة فتيَّة جدّاً. غير أنَّه سيصبُّ في مصلحة مُنعطَفنا نحن. فها هنا أخيراً رفضٌ حقيقيٌّ ومُتعمَّد لِما يدعوه عدوُّنا النعمة، وإن لم يكن ذلك على نحوٍ واضح تماماً.

هاتان إذاً ظاهرتان مُرحَّبٌ بهما: أُولاهما وفرة أسرانا؛ ومهما كان طعامُنا تَفِهاً، فلسنا عُرضةً لخطر الجوع. أمَّا الثانية، فهي الغَلَبة. وقد بلغ

مُجرِّبونا أرفعَ مستوى في مهاراتهم. غير أنَّ العِبرة الثالثة، تلك التي لم أستعرضها بعد، هي أهمُّهنَّ.

إنَّ نوع النفوس التي ببؤسها وشقائها وهلاكها (التي لن أقول إننا استمتعنا استمتاعاً بالغاً بها، بل تَقوَّتنا عليها على الأقل) هذه الليلة يتزايد عدداً، وسيظلُّ يتزايد. فالأنباءُ الواردة إلينا من القيادة السُّفلى تؤكِّد لنا أنَّ الحال على هذا المِنوال، حيث تُنبِّهنا التعليمات التي نتلقّاها إلى وجوب توجيه تَكتيكِنا بالنظر لهذا الوضع. ولَن يتلاشى الخُطاة "الكبار"، أولئك الذين دُفِعت المشاعر الناشطة والسخيَّة لديهم إلى خارج حدودها، وكُرِّس تركيزٌ هائلٌ في إرادتهم لأغراضٍ يمقتها العدوّ. لكِنْ سيصبحُ الخطاةُ الكِبَارُ أندر بينما ضحايانا سيظلّون يتزايدون عدداً كلَّ حين، غير أنَّهم سيكونون على نحوٍ مُتزايِدٍ من الرَّعاع: نُفايةً كان ينبغي لنا في ما مضى أن نطرحها لسِربيروس[8] وأعوانه من الكلاب الحارسة للجحيم، باعتبارها غير صالحة للاستهلاك الشيطانيّ. وأُريد منكم أن تفهموا بشأن هذا الواقع أمرَين: أوّلاً، أنَّه مهما بدا واقعاً مُحزِناً فهو بالحقيقة تغييرٌ نحو الأفضل؛ وثانياً، أودُّ لفتَ انتباهكم إلى الوسيلة التي بواسطتها قد حصل.

إنَّه تغييرٌ نحو الأفضل. فالخُطاة الكبار (اللذيذون) مصنوعون من مادَّةٍ واحدة بعينها صُنع منها أيضاً أولئك الذين يُشكّلون ظاهرة رهيبة، أي القدّيسون العِظام. وقد يعني تلاشي هذه المادَّة الفعليُّ لنا وجباتٍ تَفِهة مَذِقة. ولكنْ، أليس هو للعدوّ خيبةً مُطلقة وجوعاً كلّيّاً؟ فهو لم يخلق الآدميّين، ولا صار واحداً منهم ومات بينهم مُعذَّباً، لكي يُنتج مُرشَّحِين للأعراف، آدميّين "خائبين". لقد أراد أن يصنع قدّيسين،

8 سربيروس: شخصيّة من الميثولوجيا اليونانية يمثّل كلباً ذا رؤوس ثلاث وذيلٍ هو أفعى. كانت وظيفته هي حماية بوابة الجحيم كي لا يخرج منها أحداً.

آلهة، كائناتٍ على صورته. أليست تفاهةُ وجبتِكم الحاليَّةِ ثمناً بخساً جدّاً ندفعهُ نظير المعرفة الشهيَّة بأنَّ اختباره العظيم بمُجمَله آخِذٌ في التَّلاشي؟[٩] إنَّما ليس هذا فقط. فإذ يقلُّ الخُطاة الكبار، وتفقد الأكثريَّة كلَّ سمات الشخصيَّة والفردية المميَّزة، يصير الخُطاة الكبار وكلاءَ لنا ذوي فعّاليَّة أشدَّ بكثيرٍ جدّاً. ذلك أنَّ كلَّ ديكتاتور، أو حتَّى كلَّ زعيم غوغائيّ، وتقريباً كلَّ نجم سينمائيّ أو كلَّ مُدَندِن، يستطيع الآن أن يجرَّ وراءه عشرات الآلاف من القطيع الآدميّ. فهم يُعطونَه نفوسَهم (ما لديهم من نفوسهم)، ومن خلاله يُعطوننا إيّاها. وقد يأتي زمنٌ لا يكون فيه ما يدعونا إلى القلق بشأن تجربة الأفراد على الإطلاق، إلاَّ بالنِّسبة إلى الأقِلاَّء. فأمسِكوا بالكَرّاز،[١٠] يَجرِ قطيعُه كلُّه وراءه!

ولكنْ هل تُدرِكون كيف نجحنا في إنزال كثيرين جدّاً من أفراد الجنس البشريّ إلى مقام الصِّفر؟ إنَّ هذا لم يحدث بالصّدفة، بل كان ردَّنا – ويا له من ردٍّ رائع! – على واحدٍ من أخطر التحدِّيات التي كان علينا أن نواجهها يوماً.

دعْني أستحضِر ألى أذهانكم ما كان عليه الوضع البشريُّ في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، أيِ الفترة التي توقَّفتُ فيها عن أن أكون مُجرِّباً مُمارِساً وكوفئتُ بمنصبٍ إداريّ. وكانت الحركة العظيمة نحو الحُرِّيَّة والمساواة بين البشر قد حملت آنذاك ثمراً فعليّاً، وقد بلغتِ النُّضج. كذلك تمَّ إبطال العبوديَّة، والفوزُ في حرب

٩ القديسون العظام والأشرار الخطاة الكبار يتشابهون في عظمة ولائهم لما يؤمنون به ويعبدونه. وزوال الخطاة الكبار صاحبه زوال للقديسين العظام. ومع أن الشيطان خسر وجباته المكوَّنة من الخطاة الكبار، فإنه يحسب أن الله خسر «وجباته» من المؤمنين القديسين العظام أيضاً. فما يعده الشيطان خسارة له هو برأيه خسارة لله أيضاً.

١٠ الكرّاز: هو الكبش أو الماعز الذي يجعل الراعي في عنقِهِ جرساً ليتبعه القطيع.

الاستقلال الأميركيَّة، ونجاحُ الثورة الافرنسيَّة. كما أنَّ التسامُح الدينيَّ كان يتعاظم في كلِّ مكانٍ تقريباً. وقد كان في تلك الحركة من الأساس عدَّة عناصر تخدم مصلحتنا. إذ خالطها كثيرٌ من الإلحاد، وكثيرٌ من مقاومة الإكليروسيَّة، وكثيرٌ من الحسد والتعطُّش للانتقام، بل أيضاً بعض المحاولات (العبثيَّة إلى أبعدِ حدّ) لإحياء الوثنيَّة. وَلم يكن من السهل أن نُحدِّد ما ينبغي أن يكون عليه موقفُنا. فمن ناحية، وُجِّهت إلينا ضربةٌ كانت مُوجِعة، وما تزال، في أن ينشط العمل على إطعام أيِّ صنفٍ من الآدميِّين سبق أن كانوا جياعاً، أو على تحطيم قيود قوم طالما كانوا عبيداً مُقيَّدين. ولكنْ من الناحية الأُخرى، كان في هذه الحركة قدْرٌ كبيرٌ من رفض الإيمان، ومن المادِّيَّة والدُّنيويَّة والبغضاء، حتَّى شعرنا بأنَّ علينا أن نَرعاها ونُعزِّزها.

غير أنَّ الوضع، في أثناء الجزء الأخير من القرن، غدا أبسط بكثير، وأكثر إنذاراً بالسُّوء أيضاً. ففي القِطاع الإنكليزيّ (حيث تولَّيتُ معظم خدمتي على خطوط النار) حدث أمرٌ رهيب. ذلك أنَّ العدوَّ، بخفَّة يده المعهودة، قدِ استولى إلى حدٍّ بعيد على هذه الحركة التقدُّميَّة أوِ التحرُّريَّة وحوَّلها لخدمة مآربه الخاصَّة. وبقي مقدارٌ ضئيل جدّاً فقط من مُناهضة هذه الحركة القديمة للمسيحيَّة. ثُمَّ تفشَّتِ الظاهرة الخَطِرة المُسمَّاة الاشتراكيَّة المسيحيَّة. وإذا بأصحاب المصانع الذين ينتمون إلى الصنف القديم الجيِّد، والذين اغتنوا بفضل العمل الاستغلاليّ، بدلَ أن يغتالهم عُمَّالُهم (كان في وسعنا أن نستخدم ذلك) يعبس عليهم أهلُ طبقتهم الاجتماعيَّة بعينها. وأخذ الأغنياء يتخلَّون على نحوٍ مُتزايد عن نفوذهم وامتيازاتهم ليس تحت وطأة الثورة والإكراه، بل إطاعةً لضمائرهم الشخصيَّة. أمَّا الفقراء الذين استفادوا من ذلك، فقد كانوا يتصرَّفون بطريقة مُخيِّبة للآمال إلى أبعد الحدود. فبدل أن

يستخدموا حرِّيّاتهم الجديدة (كما رجونا وتوقّعنا بصورةٍ منطقيَّة) لأجل القتل والاغتصاب والنهب، أو حتّى السُّكر المستمرّ، انهمكوا على نحوٍ فاسد في أن يصيروا أنظف، وأكثر ترتيباً، وأوفر ازدهاراً، وأفضل تعلُّماً، بل أيضاً أكثرَ استقامةً. صدِّقوني أيّها الشياطين الكِرام، إنّ التهديد الكامن في ما يُشبِه حالةَ مُجتمعٍ سليمةً حقّاً بدا آنذاك خَطِراً على أكمل وجه.

إنّما بفضل أبينا الدنيّ تمّ تفادي التّهديد الخَطِر. وقد جرى هجومُنا المُعاكِس على صعيدين. فعلى الصعيد الأعمق، احتال لاعِبونا كي يبعثوا الحياة الكاملة في عُنصر طالما كان كامناً في الحركة منذ أيّامها الأولى. وقد كان مُستتِراً في قلب هذا الكفاح لأجل الحريَّة أيضاً بُغضٌ خفيٌّ للحرِّيَّة الشخصيَّة. وذلك الرجل الذي لا يُقدَّر بثمن، روسُّو، كان أوّل من كشف ذلك. ففي ديموقراطيّته الكاملة، كما تذكرون، دينُ الدَّولة وحدَه مَسموحٌ به، والعبوديَّة مُحياةٌ، والفرد يُقال له إنّه بالحقيقة قد شاء (مع أنّه لا يعلم ذلك) كلَّ ما تطلب منه الحكومة أن يفعله. ومن نقطةِ الانطلاق تلك، عَبْرَ هيغِل (وهو داعيةٌ آخر لا غِنى عنه في صفِّنا)، استنبطنا بسهولة كِلتا الدولتَين النازيَّة والشيوعيَّة. حتّى في إنكلترا، أصَبنا نجاحاً ملحوظاً. فقد سمعتُ منذ بضعة أيّام أنّه في ذلك البَلَد لا يستطيع المرء، بغير رُخصة، أن يقطع شجرتَهُ الخاصَّة بفأسه الخاصَّة، ويصنعَ منها ألواحاً بمنشاره الخاصّ، ويستخدمَ الألواح لبناء سقيفة للعُدَّة في بستانه الخاصّ.

هذا كان هجومَنا المعاكِس على أحد الصعيدين. وأنتمُ، المُبتَدئين فحسْب، لَن يُعهَد إليكم بعملٍ من هذا النوع. إنّكم ستُلحَقون بصفة مُجرِّبين لأشخاص أفراد. وعلى هؤلاء، أو بواسطتهم، تتّخذ هجوماتُنا المعاكِسة شكلاً آخر.

إنَّما الديموقراطيَّة هي الكلمة التي بها يجب عليكم أن تقودوهم من أنوفهم. فالعمل الصالح الذي أنجزه خُبراؤنا الفيلولوجيُّون فعلاً في إفساد لُغَة البشر يُغنيني عن تنبيهكم إلى أنَّه لا ينبغي أن يُسمَح لهم البتَّة بإضفاء معنىً واضح ومُحدَّد على هذه الكلمة. وهم لن يفعلوا ذلك. فلن يخطر في بالهم أبداً أنَّ الديموقراطيَّة هي أصلاً تسميةٌ لنظام سياسيّ، بل لنظام اقتراعٍ أو تصويت، وأنْ ليس لذلك إلاَّ العلاقةُ الأكثر بُعداً وغموضاً بما تُحاولون أن تُغروهم بقبوله. ولا ينبغي لكم أيضاً بالطبع أن تسمحوا لهم أبداً بإثارة سؤالِ أرِسطو: أيعني "السلوكُ الديموقراطيُّ" ذلك السلوكَ الذي تُحبِّذه الدولُ الديموقراطيَّة أم ذلك السلوك الذي من شأنه أن يصون دولةً توصف بأنَّها ديموقراطيَّةً؟ فإنَّهم لو فعلوا ذلك، لَما فاتهم على الأرجح أن يدركوا أنَّ هذين الأمرين ليسا بالضرورة الشيءَ ذاته.

عليكم أن تستخدموا هذه الكلمة كمُجرَّد رُقية؛ لأجل قوَّتها التغريريَّة فقط، إذا شئتم. فهي تسميةٌ يُوقِّرونها. وهي طبعاً مرتبطة بالمفهوم السياسيّ المثاليّ القائل بأنَّه يجب أن يُعامَل جميع البشر بالتساوي. من ثَمَّ تُحدِثون في أذهانهم نقلةً اختلاسيَّة من هذا المَثَل السياسيّ الأعلى إلى اعتقادٍ حقيقيٍّ أنَّ جميع البشر مُتساوون فعلاً، ولا سيَّما لدى الإنسان الذي تتعاملون معه. نتيجةً لذلك يمكنكم أن تستخدموا الكلمة ديموقراطيَّة كي تُجيزوا في فكرِه أحطَّ المشاعر البشريَّة جميعاً (وأقلَّهُنَّ إمتاعاً أيضاً). ففي وسعكم أن تحملوه على أن يُمارِس، وليس بلا حياءٍ فقط بل أيضاً باحتدام تامٍّ من الاستحسان الذاتّي، سُلوكاً إذا لم تحمِه هذه الكلمة السحريَّة كان عرُضةً للازدراء العامّ.

أمَّا الشعور الذي أقصده فهو بالطبع ذاك الذي يحفز إنساناً مّا على أن يقول: "أنا صالحٌ، مثلي مثلك."

إنَّ أوَّل الحَسَنات وأوضحها تتمثَّل في كونكم بذلك تَحثُّونه على أن يُنصِّب على عرش حياته المركزيِّ كذبةً قويَّة راسخةً مُدَوِّية. لستُ أعني فقط أنَّ تصريحه زائفٌ بالحقيقة: إذ يصرِّح أن مساواتَهُ لكلٍّ من يُقابِله في اللُّطف والأمانة والذَّوق الصالح هي مثل مساواته لهم في طول القامة وقياس الخصر. لكنَّما أعني أنَّه هو نفسه لا يعتقد ذلك. فما من إنسانٍ يقول "أنا صالح، مثلي مثلك" يعتقد ذلك فعلاً. ولو كان يعتقده، لَما قاله. فإنَّ هذا القول لا يقوله البتَّة كلبُ السَّنبرنار لكلبِ دُمية، ولا العالمُ للمغفَّل، ولا الموظَّف للمُتبطِّل، ولا الحسناءُ للقبيحة. ذلك أنَّ دعوىَ المساواة، خارج المجال السياسيِّ حصراً، لا يلجأ إليها إلاَّ الذين يشعرون أنَّهم أقلُّ شأناً من سواهم بطريقةٍ ما. فالأمر الذي تُعبِّر عنه هو على وجه التحديد ذلك الشُّعور النَّهّاش اللاذع المُمِضُّ بِدُونيَّةٍ يرفض المريض أن يتقبَّلها.

وبسبب ذلك يستاء. نعم، بسبب ذلك يستاء من أيَّة صورةٍ للأَعلَويَّة والتفوُّق لدى الآخرين، بل يقلِّل من قيمتها ويتمنَّى إبطالها. وتوّاً يرتاب في كلِّ اختلاف معتبراً إيَّاه داعياً إلى الأعلَويَّة والتفوُّق. فلا أحد ينبغي أن يكون مختلفاً عنه في الصوت أو الثياب أو التصرُّفات أو الاستجابات أو اختيار الطعام. "ها هُنا شخصٌ يتكلَّم اللغة بطريقةٍ فيها يفوقُني إبانةً وطلاقة... لا بدَّ أنَّ هذا تظاهُرٌ خسيسٌ استعلائيٌّ استعراضيّ. ها هُنا امرؤٌ يقول إنَّه لا يحبُّ السُّجُق الساخن... لا شك أنَّه يحسبُ نفسه أرفع ذوقاً من أن تروقه هذه الأكلة. ها هُنا رجلٌ لم يُدِر جهاز الجُكبكُس[11]... لا بدَّ أنَّه واحدٌ من أولئك الأشخاص الرفيعي الثقافة، وهو بذلك يسعى إلى لَفت الأنظار. لو كان هؤلاء من صنف

١١ جهاز الجكبكس: صندوق موسيقى يمكن اختيار مقطوعة معينة فيه بالضغط على زرٍّ معيَّن.

الرجال الصحيح، لكانوا مثلي. لا يحقُّ لهم أن يكونوا مُختلِفين. إنَّ هذا أمرٌ غير ديموقراطيّ.”

والآن، ليست هذه الظاهرة المفيدة، في حدّ ذاتها، جديدةً بأيَّة حال. فإنَّها، تحت اسم الحسد، استمرَّتْ معروفةً لدى الأدميّين آلافاً من السنين. ولكنَّهم حتَّى الآن كانوا يعتبرونها دائماً أقبح الرذائل وأكثرهنَّ إضحاكاً. فأولئك الذين كانوا مُدرِكين شعورهم بها، شعروا بها مقترنةً بالخجل. أمَّا الذين كانوا غير مُدرِكين، فلم يُعيروا وجودها عند الآخرين أيَّ اهتمام. إنَّما الجديد المُبهِج في الوضع الراهن هو أنَّكم تستطيعون إجازتها، بجعلها جديرةً بالاحترام، بل أيضاً بالثناء، من خلال الاستخدام السحريّ لكلمة الديموقراطيَّة.

بتأثيرِ هذه الرُّقية، يستطيع أولئك الذين هم في ناحيةٍ ما — أو في كلّ ناحية — ذوو دُونيَّةٍ أن يَجهدوا، بإخلاصٍ ونجاح غير مسبوقَين، لإنزال كلّ شخص آخر إلى مستواهم. ولكنَّ ذلك ليس كلَّ شيء. فبالتأثير نفسه، أولئك الذين يقتربون — أو يمكن أن يقتربوا — إلى إنسانيَّة كاملة، يتراجعون عنها فعلاً خشيةَ أن يكونوا لا ديموقراطيّين. وقد بلغني من مصادرَ موثوقٍ بها أنَّ الأدميّين الشبّان الآن يكبتون بعض الأحيان ميلاً أوَّليّاً إلى الموسيقى الكلاسيكيَّة، أو الأدب الرفيع، لأنَّه قد يمنعهم من مجاراة الجيران؛ كما أنَّ الأشخاص الذين من شأنهم حقّاً أن يرغبوا في أن يكونوا (والذين يُمنَحون النعمة التي تُمكّنهم من أن يكونوا) صادقين، أو أعِفّاء أو مُعتدِلين، يرفضون ذلك. وإذا قبلوا، فقد يجعلهم ذلك مختلفين، وقد يَنتهِك نمط الحياة، ويعزلهم عن المعيَّة، ويُعيق اندماجهم في الجماعة. بل إنَّهم (ويا للهول الهائل!) قد يصيرون أفراداً مستقلّين.

ويتلخَّص ذلك كلُّه في الصلاة التي يُقال إنَّ شابَّة من الأدميّين

تفوَّهت بها منذ عهدٍ قريب: "اللهُمَّ اجعلني فتاةً سويَّة من فتيات القرن العشرين!" فبفضل جهودنا، سيعني هذا على نحوٍ مُتزايِد: "اجعلني فتاةً وقحة، بلهاء، طُفيليَّة."

في هذه الأثناء، وكنتيجةٍ ثانويَّة مُبهِجة، فإنَّ الأقلاَّء (هم يقلُّون كلَّ يوم باطِّراد) الذين لن يصيروا أسوياء ومُنتظِمين ومُجارِين للجيران ومُندمِجين مُتكامِلين، يميلون على نحو مُتزايِد لأنْ يصيروا في الواقع أولئك المُتزمِّتين والمهووسين الذين كان من شأن الغوغاء على كلِّ حال أن يحسبوهم مهووسين ومتزمِّتين. ذلك أنَّ الشكَّ يُوجِد في أغلب الأحيان ما يشكُّ فيه. ("حيثُ إنَّني مهما فعلتُ فالجيران سيحسبونني ساحراً أو عميلاً شيوعيّاً، فقد أُصوَّر أيضاً بصورة المُغفَّل لكوني ساذجاً، ومن ثَمَّ أصيرُ كذلك في الواقع".) ومن جرّاء ذلك صار لدينا الآن جماعةٌ من أهل الفكر نافعةٌ جدّاً لقضيَّة الجحيم، رُغمَ كونها قليلة العدد جدّاً.

غير أنَّ ذلك مجرَّد نتيجة ثانويَّة. فما أُريد أن أُركِّز انتباهكم عليه هو الحركة الواسعة الشاملة باتِّجاه الانتقاص — وأخيراً التخلُّص — من جميع أشكال التفوُّق البشريّ، سواءٌ كان أخلاقياً أو ثقافيّاً أو اجتماعيّاً أو فكريّاً. أوليس حسناً أن تُلاحِظوا كيف أنَّ الديموقراطيَّة (بمعناها السحريِّ) تُنجِز لنا الآنَ العملَ الذي كانت تقوم به في ما مضى أقدم الدكتاتوريّات، وبالأساليب نفسها؟ أنتم تذكرون كيف أنَّ واحداً من الحُكّام الدكتاتوريِّين اليونانيِّين (كانوا يُسمُّونهم "مُستبدِّين" آنذاك) أرسل مندوباً إلى دكتاتور آخر ليلتمس نصيحته بشأن مبادئ الحُكم. فاصطحب الديكتاتورُ الثاني المندوبَ إلى حقل ذُرَة، حيث ضربَ بعصاه وقطع رأسَ كلِّ نبتةٍ أعلى بسنتيمترين أو أكثر عن المستوى العامّ. وقد كانت العِبرة واضحة. لا تسمحْ بأيِّ تفوُّقٍ بين رعاياك. لا

يعِش أيُّ إنسانٍ يكون أحكم من الجماهير، أو أفضل، أو أشهر، أو حتَّى أوسم. اِقطَعهم جميعاً ليكونوا على مستوىً واحد، بحيث يكونون كلُّهم عبيداً وأصفاراً ونكِرات. ليكونوا كلُّهم أنداداً مُتساوين! وهكذا تأتّى للمُستبدّين أن يمارسوا "الديموقراطيَّة" بمعنىً من المعاني. أمّا الآن، فإنَّ "الديموقراطيَّة" يمكن أن تؤدّي العمل عينه بغير أيّ استبدادٍ سوى استبدادها هي. لا داعيَ لأنْ يجول أحدُ الآن في الحقل حاملاً عصا. فالنبتات الصغيرة الآن ستقضم من تلقاء ذاتها رؤوسَ النبتات الكبيرة. وقد بدأت الكبيرات يقضمن رؤوسهنَّ رغبةً منهنَّ في أن يكنَّ مثل سائر النبتات.

لقد قلتُ لكم إنَّ ضمانَ هلاكِ هذه النفوس الصغيرة، هؤلاء الخلائق الذين كفُّوا تقريباً عن أن يكونوا أشخاصاً مستقّلِين، هو عملٌ كادٌّ ودقيق. ولكن إذا بذلتم الجهد والمهارة المطلوبيَن، يُمكنكم أن تطمئنُّوا تماماً إلى النتيجة. يبدو أنَّ الخطاة الكبار أسهل صيداً. إلاَّ أنه يصعب التنبُّؤ بحالهم. فبعد أن تكونوا قد تلاعبتُم بهم سبعين سنة، قد يخطفهم العدوُّ من بين بَراثِنكم في السنة الحادية والسبعين. إنَّهم قابلون — كما ترَون — للتوبة الحقيقيَّة، إذ إنَّهم مُدركون للشعور الحقيقيِّ بالذنْب. وإذا سارت الأُمور على غير ما نروم، فإنَّهم مستعدُّون لتحدّي الضغوط الاجتماعيَّة حواليهم في سبيل العدوّ كما كانوا مستعدّين لتحدّيها في سبيلنا. فمن بعض النواحي، تعقُّب دَبُّورٍ مُراوغٍ أكثرُ إزعاجاً من إطلاق النار على فيلٍ بريٍّ من مسافةٍ قريبة. غير أنَّ عدم إصابة الفيل أكثرُ إزعاجاً!

لقد كسبتُ مُعظم خبرتي، كما سبق أن قلت، في القطاع الإنكليزيّ من الجبهة، وما زلت أتلقّى من هناك أخباراً أكثر ممّا أتلقّى من أيِّ مكانٍ آخر. فربّما لا ينطبق ما سأقوله الآن تماماً على القطاعات التي يشتغل

فيها بعضٌ منكم. غير أنَّ في وسعكم إجراء التعديلات الضروريَّة عندما تصلون إلى هناك. إنَّما سيكون له بعضُ التطبيق بكلِّ تأكيد على الأرجح. فإذا كان ما يمكن تطبيقه قليلاً جدّاً، يجب عليكم أن تجتهدوا لتجعلوا البلد الذي تتعاملون معه أكثر شبهاً بوضع إنكلترا الحاليّ.

ففي ذلك البلد الواعد، أصبحت روحُ "مثلي مثلك" بالفعل ظاهرةً تتعدّى مجرَّد كونها تأثيراً اجتماعيّاً فعّالاً بشكلٍ عام. إذ بدأت تتداخل في نظامهم التربويّ. أمّا مدى ما بلغَته مفاعيلُها في الوقت الراهن، فلا أودُّ أن أُشير إليه على نحوٍ قاطع. وهذا لا يهمُّ أيضاً. فحالما تضعون أيديكم على هذه النَّزعة، يمكنكم أن تتنبّأُوا في سهولة بتطوُّراتها المستقبليَّة، ولا سيمَّا حين نؤدّي نحن دورنا في التطوير. ذلك أنَّ المبدأ الأساسيّ في التربية الحديثة ينبغي أن يكون أنَّ المُغفَّلين والمتكاسِلين يجب ألاّ يُحفَزوا على الشعور بأنَّهم أدنى من التلامذة الأذكياء والمجتهدين. فمن شأن ذلك الشعور أن يكون "غير ديموقراطيّ" ولا يتناسب مع الديموقراطية. ويجب إخفاء فروقٍ من هذا النوع بين التلامذة، لأنَّها على نحوٍ واضح ومكشوف فروقٌ فرديَّة. ومن الممكن القيام بذلك على مستوياتٍ شتّى. ففي الجامعات، يجب أن تُصاغ أسئلة الامتحانات بحيث يتسنّى لجميع الطلاّب تقريباً أن ينالوا علامات جيِّدة. كما يجب أن تُجرى امتحانات الدخول والقبول بطريقة تضمن لجميع المواطنين، أو تقريباً لجميعهم، فرصة دخول الجامعات، سواءٌ كانت لديهم أم لم تكُن أيَّةُ قدرة (أو رغبة) للاستفادة من التعلُّم العالي. وفي المدارس، يُمكن للأولاد الذين يحول غباؤهم أو كسلهم دون تعلُّم اللغات والرياضيَّات والعلوم الابتدائيَّة أن يُوجَّهوا إلى القيام بالأشياء التي اعتاد الأولاد أن يعملوها في أوقات فراغهم. فليصنعوا مثلاً أشكال حيواناتٍ من الطين، ويُسَمُّوا ذلك تشكيلاً. ولكنْ لا ينبغي أن يصدر إليهم أوهى تلميح

إلى أنّهم أدنى من الأولاد المنكبّين على دروسهم. فمهما كان تافهاً ما ينهمكون فيه، يجب أن يُولى قدْراً مماثلاً من التقدير. بل إنّ مكيدةً أقسى بعدُ ليست مستحيلة: الأولاد المؤهّلون للارتقاء إلى صفٍّ أعلى يمكن إبقاؤهم في صفّهم زوراً، لأنّ التلامذة الآخرين سيتلقّون صدمة – يا لها من كلمةٍ مفيدة يا بَعلزَبول! – إذا لَمْ يتقدّموا معهم. وهكذا يبقى التلميذ الذكيُّ، بدعوى الديموقراطيّة، مُكبّلاً بأترابه طوال مدّة تحصيله المدرسيّ، والولدُ القادر على استيعاب شعر أيسخيلوس[١٢] أو دانته[١٣] يقعد مُصغياً إلى محاولات مُجايلٍ له يتهجّى عبارةً سخيفة مثل «قعدت قطّةٌ على قدّة بساط!»

وبكلمة، يَسعُنا منطقيّاً أن نرجو بطلان التربية أو الثقافة متى أكمل مفهومُ "مثلي مثلك" شوطَه وعمله إلى التمام. فسوف تتلاشى جميعُ حوافزِ التعلُّم، وجميعُ عواقبِ عدم التعلُّم. والأقلاّء الذين قد يرغبون في التعلُّم سيُمنَعون؛ فمَن هم حتّى يتفوّقوا على أقرانهم؟ ولكنْ على كلِّ حال سيكون المُعلّمون (أم ينبغي أن أقول الحاضِنون؟) منشغلين كثيراً بطمأنة المُغفَّلين وبتربيت ظهورهم بحيث لا يُبدّدون أيَّ وقتٍ في التعليم الحقيقيّ. ولن نُضطرَّ بعدُ إلى التخطيط والعناء لنشر الغرور المُستحكِم والجهل المُستعصي بين البشر. فإنّ الطُفيليّين الصغار أنفسهم سيتولّون القيام بذلك لأجلنا.

طبعاً، لن يحصل ذلك إلاّ إذا صارت التربية بكاملها على عاتق الدّولة. ولكنّها ستصير حتماً. فذلك جزءٌ من الحركة عينها. ذلك أنّ الضرائب الجزائيّة، الموضوعة لهذا الغرض، تعمل على تصفية الطبقة

١٢ أيسخيلوس: كاتب مسرحي يوناني، ويُعتبر أبا التراجيديا. عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد.

١٣ دانته: شاعر اشتُهر بملحمة "الكوميديا الإلهية".

الوسطى، طبقة أولئك الذين كانوا مستعدِّين للتوفير والإنفاق وبذل التضحيات في سبيل أن يحظى أولادهم بالتربية الخاصَّة. ومن سعدِنا أنَّ إزالة هذه الطبقة، فضلاً عن كونها مرتبطةً بإبطال التربية، هي نتيجة للروح القائلة "مثلي مثلك" وقد كانت هذه، رغم كلِّ شيء، هي المجموعة الاجتماعيَّة التي أمدَّت الآدميِّين بالأكثريَّة الساحقة من عُلَمائهم وأطبّائهم وفلاسفتهم ولاهوتيِّيهم وشعرائهم وفنَّانيهم ومُوسيقيِّيهم ومُهندِسيهم وقانونيِّيهم ومُديريهم. وإذا كانت هنالك حزمة نبتات طوال السَّاق ينبغي قطعُ رؤوسها، فمن المؤكَّد أنَّ تلك الطبقة هي تلك النبات؛ كما علَّق سياسيٌّ إنكليزيٌّ منذ عهدٍ غير بعيد: "النظام الديموقراطيُّ لا يطلب رجالاً عظماء."

وسيكون تافهاً أن تسألوا مخلوقاً كهذا أيعني بقوله يطلب "يحتاج" أم "يُحبِّذ." إنَّما يحسن بكم أن تكونوا على بيِّنة. إذ إنَّ سؤال أرسطو ينطرح هنا من جديد.

من شاننا نحن، في الجحيم، أن نُرحِّب بتلاشي الديموقراطيَّة، بمعنى الكلمة الأضيق، أيِّ النظام السياسيِّ الموصوف بهذه الصفة. فشأنُه شأن جميع أشكال الحكم، غالباً ما يؤول إلى مصلحتنا، ولكنْ على العموم أقلَّ من باقي الأشكال. وما يجب أن نُدرِكه هو أنَّ "الديموقراطيَّة" بالمعنى الشيطانيّ (أنا مثلي مثلك، مُجاراة الجيران، المعيَّة) هي أمضى أداة يمكننا أن نحوزها فعلاً لاستئصال الديموقراطيَّات السياسيَّة من على وجه الأرض.

ذلك أنَّ "الديموقراطيَّة" أو "الروح الديموقراطيَّة" (بالمعنى الشيطانيّ) تُفضي إلى أُمَّة خالية من الرجال العظماء، أُمَّةٍ تتكوَّن جوهريّاً من ذوي الثقافة المتدنِّية، مُتراخيةٍ خُلقيّاً من جرَّاء الافتقار إلى الانضباط لدى الشبيبة، ممتلئةٍ بالثقة المُفرِطة التي تُحدِثها المُداهنةُ الناتجة

من الجهل، عليلةٍ من جرّاء التدليل المستمرّ مدى الحياة. وَيتمنّى الجحيم أن يكون كلُّ شعبٍ ديموقراطيّ على تلك الصورة. فإنّه حين تُقابِل أمّةٌ كهذه في ساحة القتال أُمّةً فيها دُفع الأولاد إلى العمل الجدّيّ في المدرسة، وأُسنِدت إلى ذوي القدرات أعلى المناصب، ولم يُسمح للجماهير الجاهلة بأن يكون لها قولٌ فصل في الشؤون العامّة، تكون نتيجةٌ واحدة فقط ممكنة. وقد دُهش أهلُ إحدى الدول الديموقراطيّة مؤخَّراً حين تبيّن لهم أنّ روسيا سبقتهم في مجال العلوم. فيا لها من عيّنة لذيذة من العمى البشري! إذا كان الاتّجاه الشامل في مجتمعهم مُعارِضاً لكلِّ صنفٍ من أصناف التفوُّق، فلماذا توقّعوا لعُلَمائهم هُم أن يتفوَّقوا؟

إنَّ دورنا هو أن نُشجِّع على السلوك والعادات والتوجُّه الذهنيّ الشامل الّتي تُحبِّذها الديموقراطيّات وتستمتع بها، لأنَّ هذه بعينها هي الأُمور التي إذا لم تُكبَح فسوف تُدمِّر الديموقراطيّة. ومن شأنكم تقريباً أن تتعجّبوا من أنّه حتّى الآدميُّون لا يُدرِكون هذا الواقع من تلقاء ذواتهم. فحتّى لو كانوا لا يقرأون أرسطو (من شأن قراءته أن تكون عملاً لاديموقراطيّاً) لربّما حسبتم أنّه كان من شأن الثورة الافرنسيّة أن تُعلِّمهم أنَّ السلوك الذي يُحبِّذه الأرِستُوقراطيُّون ليس هو السلوك الذي يصون الأرِستُوقراطيّة. وربّما كان من شأنهم إذ ذاك أن يُطبِّقوا المبدأ عينه على جميع أشكال الحُكم.

غير أنّني لا أودُّ أن أتوقَّف عند هذه النقطة. فليس من شأني — لا سمحَ الجحيم! — أن أُعزِّز في أذهانكم ذلك الوهم الذي يجب أن ترعوه وتنمُّوه في أذهان ضحاياكم الآدميّين. أعني ذلك الوهم القائل بأنَّ مصير الأُمم بحدِّ ذاته أهمُّ من مصير النفوس المُفردة. فإنَّ إطاحة الشعوب الحرّة ومضاعفة الدُّوَل المُستعبدة هما عندنا وسيلة (إلى جانب

كونهما بالطبع تسليةً مُبهجة)، غير أنَّ الغاية الحقيقيَّة هي إهلاك الأفراد. ذلك أنَّ الأفراد وحدهم يمكن أن يُخلَّصوا أو يُدانوا الدينونة الأبديَّة، وأن يصيروا أبناءً للعدوّ أو طعاماً لنا. فالقيمة القُصوى عندَنا لأيَّة ثورةٍ، أو حربٍ أو مجاعة، تكمن في ما قد تُنتِجه على الصعيد الفرديّ من كَربٍ وغدرٍ وحقد وسخط ويأس. فإنَّ قاعدة "مثلي مثلك" وسيلةٌ نافعةٌ لإبادة المجتمعات الديموقراطيَّة. ولكنَّ لها، كغايةٍ في ذاتها، وكحالة ذهنيَّة، قيمةً أعمق بكثير: لكونها بإقصائها كلَّ تواضُعٍ ومحبَّة وقناعة، وجميعَ مباهجِ عرفان الجميل أو الإعجاب، تُبعِد الكائنَ البشريَّ تقريباً عن كلِّ طريقٍ قد تُفضي به إلى السماء في خاتمة المطاف.

والآن، أتوجَّه إلى الجزء الأكثر إبهاجاً وإمتاعاً في واجبي. فقد وقعت القُرعة عليَّ كي أقترح بالنيابة عن الضيوف نخبَ صحَّة الرئيس صُلبغوب وكلِّيَّة تدريب المجرِّبين. املأُوا كؤوسكم. ما هذا الذي أراه؟ ما هذا العبير الطيِّب الذي أشتمُّه؟ أيُعقَل هذا؟ سيِّدي الرئيس، إنَّني أسحب جميع أقوالي المُجحِفة بحقِّ الوليمة. فأنا أرى، وأشتمُّ، أنَّه حتَّى في ظروف الحرب السيِّئة ما زال في قَبوِ الكُلِّيَّة بضعُ عشرات من زِقاق الخمر الثقيلة المُعتَّقة من صنفِ "الفرِّيسيّ". حسنٌ، حسن، حسن. ما أشبه اليوم بالأيَّام القديمة! ارفعوا الكؤوس، سادتي الشياطين الكِرام، إلى ما تحتَ مناخِركم وأبقوها لحظةً هناك. ارفعوها مُقابِل النُّور. تأمَّلوا تلك الأشعَّة الناريَّة التي تتلوَّى وتتشابك داخل قلبها القاتم وكأنَّها تتخاصم. وإنَّها لَكذلِك! أتعرِفون كيف مُزِجت هذه الخمرة؟ لقد جُنيَت أنواعٌ شتَّى من الفرِّيسيِّ وديسَت وخُمِّرت معاً لتُنتج نكهتها اللطيفة: أنواعٌ كانت على أشدِّ التعادي في ما بينها على الأرض. فمنها ما كان كلُّه قوانين وذخائر وسُبحات؛ فيما كان الباقي كلُّه أثواباً داكنة قذرة، ووجوهاً كئيبة، وامتناعاتٍ تقليديَّةً يسيرة عن

الخمر أو ورق الشدَّة أو المسرح. وكان مُشترِكاً بين الفئتين برُّهما الذاتيُّ والمسافةُ التي تكاد أن تكون غيرَ محدودة بين وجهة نظرهما الفعليَّة من جهة وأيِّ شيءٍ يتَّصف العدوُّ به حقّاً أو يوصي به فعلاً من جهة أخرى. كما كانت أهوال الأديان الأُخرى هي العقيدةَ الماثلة فعلاً في ديانة كلٍّ منهما؛ وكان الافتراءُ إنجيلَها وتشويهُ السُّمعة ابتهالَها. كَم كان أفرادُ كلتا الفئتين يكرهون بعضُهم بعضاً فوقُ حيثُ كانت الشمس تشرِق! وكم بالأكثر جدّاً يكرهون بعضهم بعضاً الآن بعدما باتوا إلى الأبد مُتواجِدين بعضهم مع بعض لكنْ غيرَ مُصالَحِين. فإنَّ ذهولهم واستياءهم عند المَزج، وقَيْح ضغينتهم غير التائبة إلى الأبد، حين تعبر جميعاً إلى قناة هضمنا الروحيَّة تفعل فيها فِعلَ النار ... النارِ السوداء.

أصدقائي، بعدَ قيامِنا بالواجب كلِّه في أقوالنا وأفعالنا، سيكون يومُنا رهيباً إذا تلاشى عنِ الأرض ذاتَ يوم ما يعنيه الآدميُّون بـِ "الدِّين". فهو ما يزال قادراً على إمدادنا بالخطايا الشهيَّة حقّاً. إذ إنَّ زهرة النجاسة الرائعة لا يمكن أن تنمو إلاَّ في جوار المُقدَّس. وليس من مكانٍ آخر فيه نُجرِّبُ البشر بنجاح يُماثِل ما نُحرِزه على دَرَج المذبح بالذّات.

صاحبَ الشرِّ المُحدِق، أهلَ الخِزي، أشواكي، أرباب الظلام، سادتي الشياطين الكِرام؛ إنَّني أرفع لكم نَخْبَ... الرئيس صُلبغوب والكُلِّيَّة!

رسائل خُربُر

كتاب كلاسيكي حول «آخر ابتداعات الجحيم وجواب السماء القاطع.»

أمتعت هذه التحفة الأدبية الهجائية كثيرين من القُرَّاء وأنارت لهم جوانب في العالم غير المرئي بتصويرها المُبدِع والساخر للحياة البشرية ونقاط ضعفها من منظور خُر بُر. وهو مساعد رفيع الشأن «لـلأب الذي في الأسفل». في عملٍ أصيل وساخر تماماً يقدِّم لنا سي. أس. لويس رسائل الشيطان المتقدم في السن والخبرة التي أرسلها إلى ابن أخيه علقم، وهو شيطان مُبتدئ مسؤول عن ضمان هلاك شابٍ عادي. «رسائل خُر بُر» أكثر روايةٍ كُتِبت عن التجربة والانتصار عليها جاذبيةً.

C. S. Lewis.

ISBN 90-5950-064-4

9 789059 500648

اوفـ